رواية

ئاسۆس

محي الدين زنگنة

ئاسۆس

روايـة

محي الدين زنگنه

اسم الكتاب: ناسۆس - رواية
تأليف: محي الدين زنگنه
من منشورات ناراس رقم: ٣٨٥
الإخراج الفني والغلاف: آراس آكرم
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة - ٢٠٠٥
رقم الإيداع في مكتبة العامة في اربيل: ٢٠٠٤/٢٠٨

الاهداء...

الى الصديق العزيز... الحبيب.

الذي طلب مني

ان اكتب شيئاً... عنه

ولكن...

لم يتهيأ له- واحسرتاه-

ان يرى ما كتبت.

محي الدين زەنگنه

١

رنّ جرس التلفون فاسترد «ئاسو» إصبعه من بين فتحات القفص الخشبي، حيث كان «ئاسوّس» المحبوس داخله ينقره، واضعاً حداً للذة العارمة التي كان يستشعرها من نقراته، ومن مشاكساته اياه.

وفرّ الى التلفون القابع في مقدمة الصالة. ولكنه لم يكد يدنو منه حتى أبصر والدته قد خرجت من المطبخ مسرعة، بكفين مبللتين تقطران ماء، فتراجع... توقف لحظة ثم واصل تراجعه... جمد عند القفص، وفكرّ:... قد يكون النداء لأبيه «هو يسمح له ان يكلم اصدقاءه... بينما هي لا تفعل».

تناولت داليا السَماعة، بعد أن نشفت يديها بصدريتها.

- الو... نعم؟

وجاءها الصوت:

- الو... صباح الخير.

- صباح الخير... نعم.

- بيت فرهاد...؟ فرهاد باران خوشناو؟

اجابت بلهفة:

- اجل... اجل... من يريده؟... من المتكلم؟

بينما جاءها الصوت آلياً... خالياً من كل انفعال.

- نداء من اربيل... مطلوب من اربيل!

- اربيل؟...

واختضت.

وبالرغم من ان ابنها، وفي هذه اللحظة بالذات، كان قد انقطع كلياً عن لغوه وثرثرته مع طائره العزيز الذي كان قد دخل معه في علاقة حب

صميمية، تعبر عن نفسها عبر صنوف من الهرج والصخب والقفز والرقص حول القفص والمداعبة والمشاكسة، بسبب انشداده هو الآخر، الى الرنين الذي انبثق من الزاوية اليمنى من الصالة، وترقبه القلق لوالده الذي لابد ان احد اصدقائه قد طلبه، فانها قد صرخت به اولاً قبل ان تتسلم طرف الكلام من الجانب المقابل، بعد ان غطت فتحة السماعة بكفها:

- ئاسوّ! كف عن الضوضاء.

وبين دهشة واستغراب وشئ من الاحتجاج السلبي، اجاب الطفل ذو السنوات الخمس بثبات:

- اني... لا افعل شيئاً... ياماما.

امتعضت داليا من جواب ابنها. ربما لانه، بالفعل، ماكان يفعل شيئاً. فقالت بحدة آمرة:

- خذ القفص واخرج الى الحديقة.

ومع ان ئاسوّ مدّ يده فعلاً الى القفص... فان الام راحت تستعجله:

- هيا... ئاسوّ... هيا.

ظل الطفل، هنيهة، ينظر إلى أمه مبهوتاً، فراحت هي تحثه مشيرة اليه بحنكها واطراف اصابعها... انْ اخرج... هيا... اخرج، لم يملك الطفل، ازاء هذا الالحاح الغريب، الا ان يتناول قفصه، ويتحرك نحو الحديقة. ولكنه إذ كان يخطو نحو الخارج اخذ يتلفت بين الفينة والاخرى الى امه التي امسكت بالسماعة السوداء واطبقت عليها بكفيها في حرص شديد، كما لو كانت تمسك بعصفور تخشى ان يطير.

خرج الطفل مرغماً، ناقلاً معه احساساً ظل ملازماً إياه... بانه قد ترك سؤالاً لجوجاً يبحث عن جواب في سماء هذا الاهتمام البالغ الذي تسبغه أمه على هذه السماعة السوداء.

- آلو... نعم... نعم... من يتكلم؟... آلو... اربيل... اربيل...

- آلو... بيت فرهاد ؟... فرهاد خوشناو...

تكرر السؤال ثانية، ولكن بصوت آخر...

- نعم... نعم... من الذي يطلبه؟

وتلكأ المقابل في الجواب بعض الوقت، عرفت انه يكلم شخصاً آخر.

ولم يلبث ان نقل اليها سؤال ذلك الشخص:

- فرهاد... موجود ؟

اجابت مسرعة:

- موجود. من يريده؟ انا زوجته دعه يتكلم معي.

تلكأ الجواب مرة اخرى؛ ايقنت انه يستشير الشخص الآخر ذاك حول اقتراحها، الذي يبدو انه قد حظي بالقبول:

- آلو... معكم دلشاد. دلشاد خوشناو؟

- دلشاد... آلو...

قالتها بسرعة فائقة، حتى قبل ان تترك الوقت المناسب لعامل البدالة ان يناول السماعة الى دلشاد، كان خوف، تجهل مصدره، من ضياع هذه الفرحة المفاجئة التي غمرتها، يحركها... وإذ تهيأ لها ان دلشاد قد تسلم طرف الخط، كررت صياحها بلهفة:

- دلشاد... مرحباً... دلشاد.

وقبل ان يأتيها صوت المقابل تزعزعت محاولاتها المستميتة في الاحتفاظ بفرحها كاملاً، إذْ شابه، على الرغم منها، شعور آخر انبثق فجأة من جزء ما من تلافيف ذاكرتها المعجونة بالذكريات.

شعور... بــ... بالحزن. قالتها متغلبة على ترددها، وخانقة في الوقت نفسه اسماً آخر لهذا الشعور الآخر، كان يهم ان يقفز من مستودع

الاسماء المتماثلة، عنواناً له، تطيراً منه وتخوفاً. ولكنه مع هذا اندمج مع حزنها، بعد ان طغى كلياً او كاد، على فرحها، واسرعت الى تحويل هذا المزيج المتناقض من المشاعر والاحاسيس التي تتوالد وتحيط بها من كل جانب الى دعاء حار:

«اللهم اجعله خيراً»

واضافت، تمنح نفسها المزيد من القناعة.

«خير... أن شاء الله خير»

وإذ ظل الصوت الآخر مختنقاً عبر الاسلاك، خيّل اليها «هي ارتأت ان تخيّل لنفسها» أن عامل البدالة ما يزال السبب في هذا التأخير، فراحت تستعجله بشيء من العصبية.

- أعطني أياه... أعطني دلشاد...

وأحست بالخجل من انفعالها وثورتها التي تفجرت على الرغم منها إذ جاءها الصوت هادئاً، خافتاً، لا يكاد يسمع:

- انه... انا... انا دلشاد... يا داليا.

- دلشاد؟.

وانشق، على حين غرة، جراب الاسئلة، فراحت تنهمر مطراً ربيعياً، لا يعرف التوقف.

- دلشاد... مرحباً. كيف انت؟ كيف عمي؟ كيف عمتي...!

كيف... كيف؟... كيف؟... كيـ..

وابتلعت برودة المقابل حرارة الاسئلة، وقطعت سكين الصمت الطويل، تدفقها المتواصل، فغصت ببقية الاسئلة في حلقها... اختنقت، خنقها الحزن الذي شملها ثانية. لماذا الحزن بالذات؟ آه يا إلهي لماذا لا استطيع ابعاد الحزن عن كل مابات يحيط بي.

شيء ما يقبع في لا وعيها، يتجذر هناك. وهذا الشئ متحرك مندفع، عنيف في حركته، قوي في اندفاعه، يكتسح كل ما يعترضه او يصادفه، ويفرض نفسه إلهاً متوحداً، في سماء افكارها... ومشاعرها. متحركاً فوق ارضية صلدة من تخوف شديد... وتطير مريع يشملانها حتى النخاع كلما جاءها نداء او خبر، او احد، من اربيل حيث اهل زوجها، وحيث مجموعة عزيزة من علاقات انسانيه واجتماعية ذات جذور تتوغل بعيداً في عمر الزمن... الى ابعد من ربع قرن.

وهذا الشئ هو الذي يفرض الاسماء والعناوين على الاشياء حولها.

بل حتى على ما في اعماقها من مشاعر واحاسيس ويلونها بالحزن... والتشاؤم واخفقت هذه المرة في الابقاء عليه بعيداً عن افكارها، بل كررت بلا وعي... اجل التشاؤم... وهو الذي يتموج عبر نبرات صوت المقابل ايضاً، بشكل يكاد يلغي كل ما عداه...

- دلشاد... لماذا سكت...؟ هل هناك شئ. ؟

أنساها يقينها المفاجئ بـ«الشئ» الذي هناك كل اسئلتها الاخرى، عن بقية افراد الاسرة، فرداً فرداً، كما تقتضى الاصول... وكما كانت قد قررت، بالرغم من برودة المقابل، ان تفعل.

- دلشاد... لماذا لا تتكلم؟

و... اخيراً تكلم دلشاد:

- فرهاد... في البيت. ؟

اجابت بذهول:

- اجل... يحلق ذقنه. هل من شئ. ؟

تجاهل سؤالها واكتفى؟

- ناديه... رجاءً.

قالها بنغمة رسمية، كأنها صادرة من انسان غريب. دهشت لها داليا:

- و... ولكن... هل... هل ثمة شئ يا دلشاد؟ لماذا لا تخبرني...؟ اخبرني ارجوك.

انفعالها المتصاعد، احاطها بحالة عجز كامل عن ابتداع اية صيغة اخرى للسؤال، صيغة تعكس قدراً اكبر من الاعتزاز بنفسها وبموقعها ضمن اسرة زوجها، يحمل المقابل ايضاً على الاقرار بهذا الاعتزاز، والتعامل معها خلاله، بعيداً عن الاستسلام والتهالك اللذين وجدت نفسها تمارسهما دون تصميم سابق. كان ينبغي ان تقول له، وانا لماذا لا تخبرني؟ الست زوجته؟ الست واحدة من افراد الاسرة شأني شأن اي واحد منكم...؟ اذن لماذا... لا تصارحني؟ لماذا يا دلشاد؟

- داليا... أرجوك أسرعي... الامر ضروري...

- ولكن... يا دلشاد لماذا لا تخبرني. ما الامر...؟

- اوه... داليا قلت لك اسرعي... ناديه هو... ارجوك...

واستسلمت مرة اخرى، ازاء لهجته الحاسمة. بلا ارادة منها فقالت بارتباك واضح:

- حـ... حـ... حالاً... حالاً. يا دلشاد.

وانتبهت الى انها ما تزال واقفة حيث كانت ممسكة بالسماعة.

وإذ ذاك. إذ ذاك فقط القت بها وهي تقول باستياء:

- ما دامت تلك رغبتك.

ابتلعت احساساً بالمهانة، ان ما يقال لزوجها، بالرغم من كل خصوصيته، ينبغي أن يكون بالامكان قوله لها ايضاً... والا فماذا يعني كونها زوجته؟ ان زوجها نفسه لا يخفي عنها شيئاً، اي شئ... اللهم الا... الا...

واسرعت تنفي ان يكون ثمة شئ خاص، اي شئ باي منهما دون الآخر.

لقد باتا كياناً واحداً، ولم يعد ثمة فرهاد ولا ثمة داليا، وغدا سائر افراد العائلتين يتعاملون معهما على هذا الاساس ايضاً.

عدا... عدا... دلشاد، الذي لسبب ما. ما تزال تجهله، وحده من بين الكل. يعتبرها غريبة عن الاسرة، ويحرص دائماً ان ينقل اليها هذا الاعتبار بمناسبة او بدونها... وها هو الآن يكرر معها ما اعتاد عليه من معاملة خاصة لها......

ذلك شأنه...!!

قالتها باستهانة، اورثتها مرارة، هازّة كتفها، محاولة التعبير عن اللا مبالاة، التي ارادت ان تتظاهر ازاءه... وازاء الامر كله...

صاحت على زوجها...

- فرهاد... فر هـ... ا... ا د

٢

اوقف فرهاد. الذي كان ما يزال يحلق ذقنه. في الطابع العلوي ضجيج آلة الحلاقة الكهربائية، اذ بدا له انه قد سمع نداءً، ولكنه في اللحظة التي مرر أطراف انامله على اسفل ذقنه يتحسس بقايا الشعر، اشغلها ثانية وراح يقتنص الشعرات القليلة المتبقية، المتناثرة هنا وهناك.

أسفل ذقنه وحول رقبته، متلذذاً بالرجفة الخفيفة التي تحدثها الآلة في جلدته المحمّرة مدندنداً مع فيروز في اغنيتها الصباحية التي يبثها المذياع في هواء الغرفة:

سني عن سني
عم تغلي عَ قلبي عهد الولدني
يا حلو يا حبيبي الما ابيعك بالدني
وكل سني بحبك اكثر من سني

أبعد الآلة عن وجهه. تناول سيجارته من فوق المنفضة، اخذ منها نفساً عميقاً، نفخه. فتلاشى الدخان فجأة بفعل الحركة العنيفة التي تحدثها المروحة في الهواء. أعادها الى موضعها... وعاد هو يتطلع عبر الشباك المطل على حديقة المنزل الصغيرة الى «ئاسوّ» في الحديقة، تحت ظلال شجرة التوت الوارفة مع طائره يمد له سبابته. واذ يحاول نقرها يسحبها بسرعة وخفة ونشوة عارمة، يختض لها جسمه النحيل. ويطلق ضحكات صافية، متقطعة سرعان ما تجد صداها عند ابيه خافتاً. اذ يكتفي بان يوسع من ابتسامته مبتهجاً بضحكات ابنه العامرة بالحياة التي كاد المرض اللعين الذي ابتلى به قبل اسبوع واحد فقط ان يمتصها من بدنه ويعيده اليهم عوداً اعجف، ملازماً سريره الذي غدا طيلة الاسبوع الماضي جزءاً منه. بلا حركة ولا نأمة ولا صوت... اشبه... بـ... جثة... ومن

يدري لعله كان في سبيله ان يستحيل الى جثة حقيقية...

***

- جلد وعظم... لم يبق من الولد غير الجلد والعظم...

قالت داليا وهي تسكب دموعها المدرارة على الطفل المسجى على ذراعيها ، الذي انكمش حتى غدا كوليد سقط لتوه من رحم امه، وعويله الذي كان، طيلة اليومين الاولين من اصابته بالمرض، سكيناً حادة، شرسة... تجول في اوصال الوالدين بوحشية. قد بات الآن انيناً خافتاً متقطعاً، أشبه بمنشار هرم، تكسرت أسنانه ينشر عظام الابوين، بسادية لا تعرف الرحمة تغرقهما في عذاب، اخرس. خرافي، لا مثيل له.

صرخت داليا بالرجل الذي نخره الالم، فتهالك على نفسه فوق الطفل كخرقة بالية، بقسوة:

- افعل شيئاً يا فرهاد... افعل شيئاً.

وتمزق الاب:

- ما الشئ الذي لم نفعله يا داليا... ما الشئ الذي لم نفعله من اجله حتى الآن؟

أجاب وهو يرنو الى الطفل الذي يذوي بصمت، بعيون أذبلها السهر... واحاطها الدمع بأحمرار تشوبه زرقة

قائمة: عو... عو... عـ... عو... عوع... عوو ووع... عوع...

وقذف الطفل كمية اخرى من السائل الابيض الذي أخذ يسيل من فيه، بين آونة واخرى، فينحدر على وجهه وملابسه.

وعلى اثره، ارتفع عويل له حاداً ممزقاً، واخذ يرفس برجليه النحيلتين. ويضرب الهواء بيديه بوهن ويتقلب فوق ذراعي امه...

اهتاجت المرأة وصرخت ثانية برجلها:

- افعل شيئاً يا فرهاد... افعل شيئاً...

واعقبتها ببكاء متشنج... أوقع الرجل في ارتباك وعجز... فاخذ يردد مع نفسه «لا حول ولا قوة - لا... حول... ولا» ما الذي استطيع أن افعله... اه- يا الهي... ما اقسى ذلك.

تناول المنشفة وراح يمسح وجهه وملابسه وملابس زوجته أيضاً:

- لا ادري ماذا افعل يا داليا... لا ادري... ماذا بوسعي ان افعل... قولي لي... ماذا ينبغي لنا ان نفعل. فقط قولي...

- لا ادري- انا الاخرى لا ادري... ولكن هل نترك القيء والاسهال يسيحان حياته... انظر اليه... لقد جف الولد... جف يا فرهاد...

همد الطفل... لقد اتعبه الجهد الذي بذله في التقيؤ... أحس بطعم كريه في حلقه. فترك فكيه مفتوحين.

ما يكاد يطبقهما حتى يتجدد الطعم الكريه في حلقه... بدا اشبه بجثة هامدة... حتى خيل الى ابيه انه قد انتهى، واذ دارت نفس الفكرة في ذهن داليا ارتعبت... وهمت ان تطلق صرختها، لولا ان الطفل في هذه اللحظة بالذات، أحس بالتعب يسري في فكيه المفتوحين... فاطبقهما بصعوبة... وما كاد يحس بالطعم الكرية في حلقه... حتى فتحهما ثانية بسرعة- وفتح معهما عينيه بوهن شديد... حين سمع امه تشهق:

- ماما... ئاسۆ... ئاسۆ... حبيبي... لا تغمض عينيك- لا تفتح فمك على هذا النحو... تكلم ماما... تكلم.

قل شيئاً... قل شيئاً يا روحي...

وأخذت تحضنه... تزرع وجهه وجسمه بالقبل...

- مـ... مـ... ـا...ء...مـا ا ا ء...

- ماء؟...

واندفع فرهاد ثانية يأتية بالماء...

- اين تذهب بكل هذا الماء يا ولدي...؟

- اين يذهب به... يسيحه ثانية..

وبللت داليا قطعة قطن وراحت تمسح بها شفتيه...

ولكن الطفل كاد يلتهم القطن...

- اسكبي في حلقه بضع قطرات... بضع قطرات لا تضر... لقد نشف جسمه...

وبصعوبة... استطاع الطفل ان يدس بضع قطرات، من الماء في حلقة... إذ راح معظم الماء يسيل على جانبي شفتيه.

واغتم وجه الطفل ثانية، وتكرمش بشكل غريب...

- ئاسۆ... بابي... ماذا بك...؟

- بـ... طني... مـ... ا ما... بطـ... ني... اه.

- فدوة لبطنك... روحي.

وراحت تغمره بالقبل، تغسل وجهه بدموعها الحرى...

- فرهاد... فرهاد...

لم تجد ملاذاً آخر... فلاذت به ثانية... إذ رأت الطفل يتلوي...

- لنذهب به الى بغداد.

حزمت امرها بسرعة...

- لو بقينا على هذه الحال لسالت حياته مع قيئه..

واضافت:

- واسهاله.

إذ تحسست الرطوبة قد تدفقت مرة اخرى فوق فخذيها...

***

هز رأسه بعنف محاولاً تمزيق تلك الصورة السوداء التي وجد نفسه ازاءها أشبه بذبابة تطبق على انفاسها... نسيج العنكبوت يحيط بها من كل جانب ولا يترك لها حتى فتحة تتنفس خلالها. ولكن الصورة كانت اقوى منه... فقد التصقت بدماغه كجزء منه...

هرب من الشبكة العنكبوتية الرهيبة... بالتحدث الى ئاسۆ نفسه:

- ئاسۆ؟...

رفع ئاسۆ رأسه نحو شباك المطبخ المطل على الحديقة، إذ... تصور ان الصوت قد اتاه من هناك.

- هنا ئاسۆ... هنا... فوق.

ورنا الى الاعلى هذه المرة... وبالرغم من ان كثافة اوراق وغصون شجرة التوت كانت قد حجزت اجزاء كبيرة من الشباك فانه خاطب اباه:

- ها... بابا...؟

ولم يكن لدى الـ «بابا» شئ هام يقول لابنه... فاكتفى بان قال على سبيل المداعبة:

- انتبه سيأكل اصبعك...

وجاءه الجواب، عبر قهقهة عالية، سريعاً:

- من؟ ئاسۆس؟ انا اسرع منه يا بابا.

ففجر في روح الاب حياة عبرت عنها ضحكته العالية:

- هاهاها... هاهاها...

وغمرته موجة عاطفية مفاجئة فقال دون اية فكرة سابقة:

- ئاسۆ... تهيأ... سآخذك الى حوض الاسماك.

- صحيح؟ وئاسۆس بابا...؟ هل نأخذه معنا؟

- لا... بابا... لا... ئاسۆس نتركه في البيت.

- لماذا؟ يا بابا... لنأخذه معنا... ارجوك... يا بابا

- لا... ابني... لا... ماذا تريد الناس يقولون عنا؟

- لا احد يقول شيئاً... واللّه...

ثم حسم الطفل الامر من جانبه:

- اذا كنت لا توافق... فلا اتي...

- ها؟.

- اذهب انت وماما... انا اظل مع «ئاسوّس»

***

في اليوم الاول من خروج «ئاسوّ» من المستشفى جاءه رسول من ابيه، من اربيل... قال لفرهاد:

- والدك يعتذر كثيراً عن المجيء بنفسه، بسبب اشغاله الكثيرة... ولكنه سيأتي قطعاً.

- أهو بخير.؟

- بخير... وقد ارسل بهذا «القبج» هدية لـ(ئاسوّ)...

- ئاسوّس؟... كيف؟ انه يعتز به كثيراً

- ولهذا السبب ارسله الى ئاسوّ بالذات... قال لا املك شيئاً افضل منه واحب إلي، كي اهديه الى احب أنسان إلي.

- اوه...

تأثرت داليا... بالغ التأثر...

- كم يحب عمي ئاسوّ...!!

وسأل الرسول:

- اين هو؟... اين ئاسوّ...؟

- ما يزال ممدداً في الفراش...

- في الفراش؟ اما زال مر...

- لا... لا... لقد تحسن كثيراً... وسيقفز من فراشه اول ما يرى هدية جده.

ولكن ئاسۆ لم يقفز من فراشه... وانما سحب ئاسۆس وقفصه الى الفراش.

ومنذ ذلك اليوم تعلق «ئاسۆ» بـ «ئاسۆس» كما لم يتعلق بأي شئ آخر... حتى غدا مشكلة حقيقية للوالدين أن يحدث شئ لـ«ئاسۆس» كأن يموت مثلما مات ذات مرة بلبله... فماذا يحدث للطفل؟. ما الذي يعزيه عنه...؟

***

ها... بابا...

وإذ لم يسمع جوابه، صرخ بصوت أعلى:

- بابا... بابا... توافق؟...

- ها؟... سأفكر في الامر- يا ئاسۆ- سأفكر...

ولم يكد يعود امام المرآة ثانية... حتى جاءه الصوت مرة اخرى:

- فرهاد... فرهاد

فاخرجه من شروده... إذ كان هذه المرة اقوى من ان يترك عنده أي التباس او يسمح له بالاستمرار في شروده، أو في المتعة التي كان يستشعرها من ملمس آلة الحلاقة لبشرته. بل حتى ان يتيح له وقتاً للتخطيط لمشروع الزيارة التي وعد بها ابنه.

ولكنه وبالرغم من كل ذلك الوضوح واليقين، تساءل:

- داليا... تنادينني؟

ربما فقط لكي يعزز عدم سماعه في المرة السابقة.

خنق ضجيج الآلة مرة اخرى واقترب من باب الغرفة فجاءه الجواب بوضوح تام:

- منذ ساعة وانا اناديك. ماذا جرى لك؟ الا تسمع؟

وقبل ان يرد عليها عاد بضع خطوات الى الوراء... أخفت... صوت المذياع بعض الشئ... واسكت نهائياً الضجيج الذي كانت تحدثه المروحة الكهربائية الهرمة في الغرفة... وسألها:

- ماذا هناك يا داليا؟

اجابت داليا باقتضاب شديد:

- تلفون.

بينما تساءل هو بلهفة:

- تلفون؟ لي؟ ممن؟

أجابت داليا:

- من اربيل.

- اربيل؟

كرر هو بآلية ولكن بلهفة متصاعدة وازدحم رأسه فجأة بصور واسماء عديدة، اختار منها بسرعة اقربها الى نفسه:

- الوالد؟

- لا... اخوك.

واضافت بنبرة خاصة:

- دلشاد.

- دلشاد؟

والقى بماكنة الحلاقة التي كان مايزال ممسكاً بها، في موضعها وخطف بقايا سيجارته... ولكن السيجارة كانت قد اكلت نفسها واتت على

آخرها... ولم يعد ثمة غير جزء صغير منها... سحقه تحت قدمه واخذ يطوي درجات السلم بسرعة فائقة، طوياً. وإذ بلغها كانت ما تزال واقفة اسفل السلم بجمود.

سألها:

- ألم يقل شيئاً؟

ودون أن ينتظر جواب سؤاله الذي القاه عليها، اسرع نحو التلفون... هي الاخرى لم تهتم بالرد عليه، إذ توجهت مباشرة الى المطبخ بأمل أن تواصل غسل الصحون والاكواب، التي تركتها هناك. ولكنها لم تكد تفتح صنبور الماء حتى سدته ثانية وعادت الى الصالة امتلأت اذناها بصراخ زوجها:

- الو... دلشاد... أجل... أجل... أنا فرهاد... كيف أنت...؟ كيف الحال كيف الوا...

واذ ابتلع اسئلته، واكتسى وجهه جمود وترقب. ادركت ان ما حدث معها يكرر نفسه بشكل او بآخر، معه هو الآخر، وان المقابل من القسوة بحيث يرد كل الاسئلة الى الجوف. ويخنق أجنتها ببرودة جليدية قاتلة:

«ربما- قالت لنفسها على سبيل الطمأنينة، وكنوع من العزاء- ربما لدى المقابل ماهو اهم من كل هذه الاسئلة التي يفجرها في الانسان عادة لقاء الاحبة والاقارب بعد طول الغياب وبعد المسافات.

وحين سمعت زوجها يقول باضطراب يلاشي نغمات الفرح باللقاء ويرسم بدلاً عنها تجهماً في وجهه، ويكاد يحبس انفاسه:

- أ... أجل... أجل... د... دلشاد... اسمعك بوضوح... م... ماذا هناك؟... هـ... هل... هل من شئ؟... ها؟... ها؟.

عرفت ان امراً غير عادي قد وقع، او انه في سبيله الى ان يقع، وان هذا الامر هو الذي جعل زوجها يفقد رصانته فجأة ويتشبث بالسماعة

على ذلك النحو الغريب... يستنطقها يتوسل اليها... يستعجلها... وهو نفسه ما جَعَلَ اخاه الذي لم يسبق له ان تلفن اليهم... ان يتلفن اليهم الآن.

وبالرغم من ان المسافة بينهما، كانت تقصر باستمرار. بفعل اقترابها الدائب منه، فانها الغتها كلياً، حتى كادت تلتصق به، وتدخل اذنها في اذنه او في فتحة السماعة، واذ اصطدمت به تراجع فرهاد قليلاً يفسح لها مجالاً، مدت داليا عنقها، حولت كل كيانها الى عين مفتوحة الى آخرها، تحاول ان تقرأ كل ماترسمه الكلمات القادمة عبر السلك الجامد من اربيل في وجهه المحمر الحليق لتوه، من انفعالات حية، وترصد كل ما تحدثه على صفحته الملساء من تغييرات وتبدلات في اللون والانقباض والانبساط، والى اذن مفتوحة هي الاخرى الى آخرها، تطمح ان لا تقف عند حد التقاط كل ما يلفظ به زوجها فقط وانما تلتقط وبنفس القدر من الوضوح كل ما يأتي من هناك عبر الخطوط المعدنية الباردة، الملتهبة بمشاعر وانفاس الطرفين.

خمنت، بل أيقنت، ان المقابل قال لزوجها. او قال له ما معناه «لا وقت لهذه الاسئلة الآن يا فرهاد» مثلما قال لها قبل قليل... وان كان بصيغة أقل قسوة.

أخذ صوت زوجها يرتجف. يتقطع. واخذ قلبها يرتجف وانفاسها تتقطع ومشاعرها تتناقض.

- نعم؟ ها...؟ أكيد؟... آه... متى؟ متى بالضبط؟ ها؟ اليوم، اليوم صباحاً؟ آه... ولماذا انتكس؟ أكان يعاني من شئ؟... ها؟... منذ... منذ متى... متى تقول؟ شهر؟... شهر بطوله... ولم تخبروني حتى برسالة؟ معك الحق... معك الحق... ليس هذا وقت عتاب... ليكن... ليكن...

واخفقت داليا في الاستمرار بالاقتصار على احتراقها الداخلي، فتساءلت بقلق واضطراب:

- فرهاد... ماذا هناك؟ يا فرهاد...

ولكن فرهاد وهو في غمرة صراخه وانفعالاته كان قد نسى تماماً ان ثمة انسانة بجانبه، لصقه، لا تبتعد عنه قيد شعرة، يفترسها القلق والاضطراب والالم، تلتصق به، تتمسح به، تتنفس أنفعالاته... واضطرابه... وتتشرب حركات وجهه.

- حسناً... حسناً... سنحاول... نحاول ماذا بوسعي ان اقول اكثر... يا دلشاد... اسمع... دلشاد، اليس بوسعي ان اتكلم معه؟ ها؟ لا... لا؟ ابداً؟ اه...!! دلشاد ارجوك فقط دعني اسمع صوته لا؟ لا يمكن...؟ لماذا باللّه...؟ ها؟ ما الذي تقول. فقد القدرة على النطق-؟ كلياً... كلياً يا دلشاد... أه... يا الهي!! على قدر المسافة، قبل الثانية عشرة، لا... لا اعتقد يا دلشاد؟ لا تنسَ انتم في اربيل ونحن في الحلة... اكثر من ستمائة كيلو متر. اسمع يا دلشاد ما دامت حالته بهذه الخطورة لماذا لا تأخذونه الى المستشفى؟ هم أخرجوه...؟

اه... هي اذن حالة يأس تام... اه...

وفقدت داليا القدرة على تمالك اعصابها.

وبالرغم من ان شكوكها قد بدأت تتراجع امام يقين يزحف بقسوة حيوانية. فانها تساءلت بقلق شديد.

- من هو يا فرهاد؟ من المريض؟

وحين أيقنت أن وجودها مهمل من قبل فرهاد امسكت به بكلتا يديها... وراحت تهزه:

-فرهاد... فرهاد... الا تسمعني؟

ودون ان يخرج فرهاد فاه من فوهة السماعة قال:

- لحظة داليا... لحظة واحدة... نعم... نعم... دلشاد... اسمعك... اجل... اجل...

وبدا على داليا انها على وشك ان تجن فصرخت به:

- فرهاد اخبرني. فرهاد... اني اتمزق

وأخذت تخضه بعنف وعصبية:

- ما الذي تريدين؟. انه ابي... ابي يحتضر

قالها بعري وقسوة مريرة... ودون ترو

حاول أن يتدارك الأمر، ان يخفف من قسوة العري وبشاعته... ولكن الاوان كان قد فات... اذ كانت المرأة قد استسلمت كلياً لفشلها التام في محاولاتها لكبت انفاسها، التي اخذت تتصاعد بشكل غريب، ولم تلبث ان تحولت الى بكاء متشنج، اوقعه في حيرة شديدة لم يستطع معها ان يقول اكثر من:

- كفى... كفى الان... ها؟ - لا... لا... انها داليا...

داليا... بدأت تبكي... ها! كيف لا اخبرها يا دلشاد- كيف لا اخبرها...؟ لابد ان تعرف... حسناً... حسناً...

٣

أسقط فرهاد السماعة في موضعها، ظل مرتمياً عليها لفترة، وإذ تطلع الى وجه زوجته المشع ابداً، وجده تمثالاً من الشمع تتحدر فوقه قطرات من الشمع المصهور تتكسر فيها اضواء الصباح.

ولكن التمثال الجامد إذ تواجه مع الوجه المحمر، الحليق حديثاً، وجده قد تبدل لونه تماماً، فقد اكتسته صفرة بشعة اشبه بصفرة المو...

وقطعت الكلمة من منتصفها، حابسة أفكارها السوداء من الاستمرار في اندلاقها، مبعدة في ذهنها تلك الصورة الرهيبة التي كانت تحاول أن تتسلل اليه.

وكي تشحن المقابل، او بالحري تشحن نفسها، ببعض الشجاعة التي أخذت تغور منهما، وتختفي ملامحها من على وجهيهما، قالت بصوت يخنقه الاسى:

- قد لا يكون الامر بالخطورة التي...

ولكن الجواب جاءها سريعاً، قاسياً، صدى لما كانت تصارعه وتكافح في سبيل خنقه في داخلها:

- اخشى ان يكون الامر اكثر خطورة...

وأكد قوله بهزات ألم من رأسه، واضاف:

- ولهذا لم يأت احد منهم لعيادة ئاسؤ بالرغم من اني خابرتهم في اليوم الاول من دخوله المستشفى. استحال صوته رصاصاً مصهوراً ينزل في لحمها تأوهت بحرقة:

- آه...

وغطت فاها وفتحتي أنفها بكفها، دافنة عينيها المخضلتين بالدموع في ارضية الصالة، بينما كان فرهاد يحدق في المجهول ويتكلم بلا رحمة... بلا رحمة...

- لابد أن يكون الامر كذلك... ولهذا لم يدعني اتكلم معه... وتهالك على مقعد قريب، وراح يعصر وجهه، ويحلج نفسه بمازوكية:

- وقد لا نحظى حتى بالنظرة الاخيرة منه... آه... آه... ما اقسى ذلك... ما اقسى كل شئ.

واستمر يقشط قشور جرح لما يندمل... ويتمادى في تعذيب نفسه وتعذيبها، متوغلاً في لحمها الممزق باقدام مملحة...

- لقد فات الاوان... فات الاوان يا داليا...

وهَم ان يضيف شيئاً اخر، واشياء اخرى ولكن الدموع انطلقت من محبسها... فاختنق صوته... خنقته الدموع الخرساء او خنقها وجودها امامه... فاستحال الى ما يشبه خوار حيوان جريح يوشك ان يلفظ أنفاسه الاخيرة.

ألم داليا، فوق ألمها، ما يعاني زوجها من آلام، ودت لو تواتيه الجرأة أن يطلق العنان لدموعه، ولا يحبسها في هذا الصمت القاتل، لا... لان ذلك من شأنه ان يخفف بعض الشئ من آلامه فقط، وانما لانه أيضاً يمنحها المبرر كي تتخلص هي الاخرى من ينابيع دموعها المتفجرة، المختنقة تحت جفنيها، والجارية بخفية مكتومة... تفضحها بين الفينة والفينة، شهقة او آهة حري او مخطة... او ضربة... و... وفجأة احاطت فرهاد بكلتا يديها:

- كفاك فرهاد... كفاك... رحمة بنفسك وبي.

وكطفل غرير الجأه رعب شديد الى احضان أمه، أستسلم لها فرهاد باحساس انه قد غدا ضعيفاً، ينخر فيه الضعف والالم كمجموعة من الديدان الشرسة تنخر في شجرة عجوز شوهاء.

وانه قد بات في حاجة شديدة الى انسان يسنده... يمنعه من السقوط.

كان وجهه بين كفيها ينتفض، وكفاه فوق كفيها ترتجفان.

- فرهاد... حبيبي... لو تكف عن تعذيب نفسك.

وفجأة أدركت مقدار السخف واللا معقول في كلامها، فارتمت فوق صدره بخجل شديد، هل ثمة من يرغب في تعذيب نفسه لو امتلك الانسان القدرة على عدم تعذيب نفسه... او حتى على الكف عن الاستمرار فيه... أتراه... يستمر؟

ولكنها كانت هي الاخرى تتعذب، وكان عذابها يربك افكارها يفقدها القدرة على التحكم في ضبط اقوالها... او السيطرة على افكارها واعصابها، فتقول اشياء دون ترو... دون ان تدري ما الذي ينبغي ان يقال. وما الذي. ينبغي الا يقال

كان فرهاد يهذي...

- المسافة بين الحلة واربيل تستغرق اكثر من سبع ساعات... انّى لي ان اقطعها خلال ثلاث ساعات، ثلاث ساعات فقط.

والقى نظرة عفوية على الساعة المعلقة على الحائط، كانت تقترب من التاسعة، كما حدس بالضبط، فاكد قوله:

- ثلاث ساعات... ثلاث ساعات فقط... اللهم هات لي جناحاً من لدنك...

شهقت داليا:

- آه...

بينما كان هو يواصل هذيانه او ما بدا لداليا انه اشبه بالهذيان اللا مسؤول.

- شئ ما اخفاه عني دلشاد... شئ في غاية الخطورة...

وسكت... هنيهة واضاف:

- يخيل إليّ ان ما يتم في الثانية عشرة... هو الدفن... انطلقت من داليا شهقة اخرى عميقة... عالية، انتبه فرهاد لوجودها، فرفع اليها

عينيه... كانت تتلوى... وتنتحب بصمت.

- داليا...

ولم يستطع ان يزيد حرفاً...

- اوه... فرهاد... لماذا هو... لماذا هو بالذات؟.

أحتضنها فرهاد

- داليا...

كان يريد ان يقول لها شيئاً... ولكنه ما يكاد يبدأ حتى تخنقه... الدموع...

وبعد صراع مع دموعه وعواطفه، خيل اليه انه حقق انتصاراً على نفسه. فاضاف:

- داليا... كفى... لا تدعي الولد يحس شيئاً...

ومدّت أناملها تمسح دموعها، ولكنها شهقت شهقة اخرى وراحت عيناها تمطران بغزارة:

- من بقى لنا بعده... يا فرهاد؟... من؟... من؟.

- داليا... ارجوك...

وإذ انتبه فرهاد الى الصفاء الذي عاد الى نبرات صوته، للمرّة الاولى. ادرك انه قد مضى شوطاً، بعيداً، ابعد منها على الاقل، في التغلب على نفسه، وعلى عواطفه. الامر الذي شحنه بقوة جديدة... وقدرة على السيطرة اكبر فقال بهدوء...

- الدموع لاتجدينا ياداليا... بالاضافة الى انها تبدد من وقتنا ساعات نحن بمسيس الحاجة اليها...

وفي اللحظة التي همت ان تؤمن على قولها زاحمتها... دموعها كرة اخرى:

- تهئ... تهئ...

وعجزت عن قول اي شئ... بعدها...

بينما اضاف فرهاد في هدوئه:

- مع كل اجلالي لما انت فيه... فان علينا واجباً اساسياً ينبغي ان لا ننساه...

وإذ رفعت اليه عينين محمرتين، نكس هو برأسه:

- علينا أن نتحرك...

قالها بحسم... ثم استمر بألم ووهن:

- تلك بعض مظاهر القسوة التي تغلف كل شئ من حولنا... كل شئ.

وبينما كانت داليا تقول بصوت لا يكاد يسمع:

- صحيح... لا ينبغي أن نتلف وقتنا بالبكاء...

أنفجرت تبكي بحرقة وتشنج... مما حمل فرهاد أن يكون اكثر صلابة:

- داليا... ارجوك... انا ادرك كم في طلبي من قسوة ولا انسانية ولكن ما العمل... ما العمل يا داليا...؟

آمنت على قوله بصدق:

- صحيح... ما تقوله صحيح...

واختنق صوتها بالبكاء، وهي تفضح عجزها...

- ولكن ليس الامر بيدي... ليس... ماذا افعل...؟...

وراح يربت على رأسها بحنان تفجر في اعماقه... وغمر كل كيانه لهذه المرأة المرتمية في احضانه بوهن وضعف... ثم أحاطها... بكلتا ذراعيه... وأخذ يقبلها كطفلة صغيرة.

- والآن كفى... يا داليا... ارجوك... من اجلي ها... من اجلي... كفي عن البكاء الآن... الآن على الاقل...

واضاف بعمق... وبشعور من يبصر كارثة مقبلة ولا يملك إزاءها شيئاً...

- سيكون ثمة وقت للبكاء... وقت طويل... ياداليا... وقت ربما...
يستغرق... العمر كله...

أختنق صوته هو هذه المرة... فاكتفى باحاطة وجهها بكفيه استسلمت له... القت رأسها على صدره. واذ احست ان صدره قد اخذ يعلو ويهبط، وان مشاعره قد اخذت تهاجمه، تفترسه بشراسة من الداخل، وانه بات يعاني الكثير من العذاب، في سبيل الاحتفاظ بهدوئه إزاءها من اجلها فقط... فرّت:

« أجنبه بعض العذاب »

وراحت تقفز درجات السلم المؤدي الى غرفة نومهما في الطابق الثاني، حاملة معها ينابيع دموعها... وبراكين عواطفها... تطلقهما هناك، وحدها، ماشاء لها الاطلاق.

- آه... ما اشد قسوة الاشياء... ما اشد قسوة الحياة...

قال ذلك وهو يضرب جبينه بجمع كفيه بشدة.

ونهض الى التلفون ثانية... يسحل نفسه نحوه سحلاً.

٤

لم ينتبه فرهاد الى دخول ئاسۆ، ولا الى وقفته المذهولة بجانبه، الا حين أخذ يلتصق به ويخضّه:

- بابا... انت تبكي؟

وبوغت الرجل. واعتدل في جلسته:

- ها ؟...

ومسح دموعه بسرعة:

- لا ئاسۆ.. حبيبي... لا.

الا ان الطفل بالرغم من تأكيد أبيه، ظل مصراً:

- عيونك ممتلئة بالدموع.

ولما عزت الحيل بيده ازاء اصراره الطفولي قال:

- رح العب ابني... رح للحديقة.

ودفعه عنه برفق

ولكن الطفل لم يتحرك ظل ملتصقاً به، يريد أن يقول له شيئاً بيد ان مرأى الدموع في عيني أبيه يحبسه في صدره.

ادرك الاب، من تجاربه السابقة مع ابنه، أنه يريد شيئاً ما أو على الاقل لديه شيء يريد الافضاء به اليه، فسأله برقة:

- ئاسۆ... هل تريد شيئاً ؟...

وهز الطفل رأسه هزة لم يعرف الآخر مغزاها...

- ماذا لديك... يا ابني؟

وهم الطفل ان يتكلم، ولكن أحساساً بأن ما لديه قد لا يكون مناسباً مع مافيه أبوه جعله يسكت... ويكتفي بدفن وجهه في حضنه، بينما راح هو يداعب خصلة الشعر الاشقر المتدلية فوق جبينه، فيحس لملمسه نعومة لذيذة. واذ تسقط يده، عفواً، على صدغيه يردها بسرعة وألم... ويعود

يداعب الخصلة الكثيفة المتدلية التي باتت، بعد ان حلقوا للطفل في المستشفى كل شعره عدا مقدمة الرأس... الذكرى الوحيدة المتبقية من ذلك الشعر الاشقر الطويل المسترسل، الذي كانت ذوائبه تلامس كتفيه... يالها من ذكرى اليمة.

***

قال له طبيب المستشفى:

- لا بد من بقائه في المستشفى بضعة ايام.

- ولكن يادكتور...

- لابد... يا ابني...

- اننا نسكن الحلة... ولم نهيء... له...

قاطعه الطبيب:

- يا ابني المرض لا يفرق بين الساكن في بغداد او في الحلة او في اي مكان آخر.

- اقصد...

- عليك أن تأتي له بدشداشة بيضاء واخرى لأمه.

وحين همّ ان يعترض... اعترضته داليا بألم:

- فرهاد... أفعل ما يقوله الدكتور.

وجرى بعد ذلك كل شيء بسرعة مذهلة... بمجرد ان همس الطبيب شيئاً في اذن ممرضّة... حتى ان طفلاً آخر... يبدو انه قد قارب الشفاء أخرج من غرفته وادخل فيها ناسو... ثم أخرج ثانية، وأقتيد الى غرفة اخرى من قبل ممرضتين. وبعد فترة قصيرة أعيد الى غرفته الاولى... بعد ان زحف جلد وجهه الى أعلى مغطيا صدغيه. وكاد يغطي الرأس كله لولا... جسر ضيق من الشعر بقي يربط مؤخرة الرأس بمقدمته. شاءتا ان تتركاه...

صعق فرهاد لمرآه...

- ما هذا؟ ماذا فعلت بابني؟

اجابت احداهما:

- اذا كان ابنك يتقيأ كلماينزل في معدته فلابد من ايجاد طريق اخر لتغذيته.

تساءل بدهشة:

- طريق آخر...؟

- طبعاً... الوريد...

واشارت الى الحبل الأزرق الخفيف... الذي بدا بوضوح بعد نزع الشعر من صدغيه، متمدداً فوق اذن الطفل من...

***

آخ...

صرخ ناسو... الذي كان مستسلماً، في البداية، بلذة لمداعبات ابيه لشعره، فجأة، بعد ان أحس به يضغط على الجرح الصغير فوق أذنه اليسرى.

وانتبه الأب أثر صرخته، أنه كان يضغط على الوريد دون ان يدري.

- آسف... ناسو... آسف... لقد سهوت يا ابني... أيؤلمك...؟

أما يزال يؤلمك...؟

- ليس كثيراً يا بابا... فقط حين أضع عليه اصبعي...

وعاد يدفن رأسه في حضن أبيه، بعد أن أمسك بكفه ووضعها بنفسه ثانية فوق رأسه.

تساءل فرهاد:

«ترى ما الذي يريده الطفل... لعله يطلب اليه ان يتهيأ للزيارة التي وعده بها».

***

قبل يومين، قال له ئاسۆ، وهو يمسك بكلتا يديه:

- بابا... خذني الى حوض الاسماك.

- حوض الاسماك... اين هو هذا الحوض؟

- حسين يقول... على طريق النجف... فيه اسماك ملونة احمر... اصفر... ابيض... هل ستأخذني بابا...

- اجل... ابني اجل...

- وماما ايضاً، ها؟...

- وماما ايضاً يا حبيبي.

- و... و... وحسين أيضاً... بابا... انه... صديقي جداً!

- وحسين أيضاً... يا ولدي... حاضر... أنت تأمر يا حلو!

وقهقها بفرح طاغٍ... غمرهما معاً...

***

آه...

تمنى من كل اعماقه ان يكون ئاسۆ قد نسي الوعد الذي قطعه له... و ولكن... ترى... أنسيه حقاً؟

اذا كان قد نسيه... فلا يحسن ان اذكره به... ولكن عليَّ ان اتأكد اولاً:

- ئاسۆ... بابا... لم تقل لي ماذا تريد؟

سأله وهو يهئ ذهنه لجواب يقنع الطفل ولا يترك في نفسه حسرة، او يظهره بمظهر الكاذب بسبب تخليه الاضطراري عن الالتزام بوعده.

ولكن ما عند ئاسۆ.. كان امراً آخر... مختلفاً تماماً عما كان يدور في ذهن فرهاد:

- «ئاسۆس» بابا... ئاسۆس جوعان.

لم يستطع الأب ان يصدق ما يسمع، فتسأل بدهشة واستنكار:

- ئاسۆس؟

واذ أحس الابن بنبرة الاستنكار عبر تساؤل ابيه، نكس رأسه... بينما كان الاب الفارغ ذهنه تماماً عن كل ما يتعلق بالطائر... مايزال يعاني صعوبة في تصديق ما سمعه:

- اقلت ئاسۆس؟

اجاب الطفل متردداً، بصوت خافت اشبه بالاعتذار:

- آ... آ أجل بابا... أجل. ماذا افعل له؟. انه جوعان.؟

اذن فالطائر جوعان...

كان بوسعه ان يهيء نفسه لسماع أي طلب منه بل ومناقشته ايضاً حول طلبه... وربما الوصول الى تحقيقه او على الاقل ايصاله الى حالة من الاقتناع، لا يعود الطفل بعدها يحس غبناً او غضاضة... أو... ولكن.

ئاسۆس جوعان؟

ما كان، لا ئاسۆس ولا جوعه ولا اي شيء يتعلق به، ليخطر له في هذه اللحظة ببال، ولا يتوسم في نفسه اية قدرة للاستجابة باي شكل من الاشكال مع... مع ئاسۆس!!

آه... يا ولدي... مع حبي العميق لك... وتعلقي بكل كلمة تلفظها... شفتاك الحبيبتان، لست في وضع يسمح لي بالاستماع الى حديث عن طائرك.

بعد فترة صمت قصيرة، كان القلق خلالها يكاد يستحوذ على كل كيان الطفل... أخذ هو يتغلب شيئاً فشيئاً على انفعاله. لكي يقول بصوت حاول جاهداً ان يبدو طبيعياً:

- مالذي تقوله يا ئاسۆ...؟

واضاف كما لو كان يخاطب صديقاً له... لا طفلاً صغيراً.

- باللّه عليك!!

وتصور الطفل ان سؤاله الخالي من اي أنفعال، هذه المرة، بقصد التوضيح والتأكيد فمنحه تصوره هذا الجرأة ان يقول بنزق.

- ماذا بك يا بابا أنت لا تفهم... أقول لك ئاسوّس جوعان. الا تدري ماذا يعني جوعان؟

اشتدت معاناة الاب في خلق جسر للتواصل مع ابنه لمشاركته مشاعره ازاء الطائر. أو حتى في الاستمرار في الاستماع الى حديث عنه...

دفعه عنه بشئ من الخشونة حريصاً مع هذا، على عدم جرح احساسه، وقال من خلال ابتسامة شاحبة كابد الكثير في اصطناعها:

- والان كفى يا ئاسوّ... كفى يا ولدي... اذهب... اذهب... الا ان الطفل رفض بعناد الانصياع لطلب ابيه:

- «وئاسوّس» بابا... «ئاسوّس» يموت اذا لم يأكل...

وابي؟ يا ئاسوّ؟ ابي؟ الا يهمك موته؟

انه هو الاخر في سبيله الى ان يموت... ان لم يكن قد مات حتى الان... وانت لا يهمك سوى موت طائرك...

تصاعد استياؤه من ابنه، جراء تفكيره على ذلك النحو، فدفعه بكلتا يديه يبعده عنه...

- اوه... ئاسوّ... ارجوك... دعني... دعني الان؟.

وما كاد الطفل يرى التجهم المفاجيء على صفحة وجه ابيه، وتخدش اذنه النبرة القاسية الغريبة في صوته ويحس باصابعه على جسمه النحيل تدفعه الى الوراء، حتى احمرت عيناه... واخذ فكه الاسفل يرتجف... وبدأ يعاني صعوبة في ابتلاع ريقه... «سينخرط في البكاء... كما اعتاد ان يفعل كلما تأزم الموقف معه»

اقلقته الفكرة التي مرقت في ذهنه، فلم يترك لنفسه اية فرصة للتأكد من مدى صحتها، فاسرع يحيطه بذراعيه. يسحبه نحوه كمن... يستغفر

عن ذنب اقترفه على الرغم منه...

- ناسوّ ابني... انت لم تعد صغيراً... أقصد انه قد بات في وسعك ان تفهم ما اريد أن أقوله لك...

كانت الكرات البلورية السائلة. قد تجمدت في العينين الذابلتين... وبظاهر كفه راح ناسوّ يمسحها... بينما كان الاب في حيرة حقيقية... «ماذا أقول له... كيف أقوله له... أه...» ما الذي يجعل طفلاً لا يتجاوز عمره سنوات خمساً فقط ان يدرك معنى الموت؟ وان يكون هذا الادراك. بالضرورة، موازياً لادراكه هو، وان يحدث فيه التأثير نفسه الذي يحدثه فيه... ان يفتح في قلبه هو الاخر جرحاً لا يندمل.

عند هذا الحد من التفكير... رنا الى ولده بعمق وحنان «جلد وعظم» تذكر كلمات زوجته، قال في نفسه: «ما يزال مجموعة من العظام في كيس من الجلد». وبدا من خلال دشداشته الطويلة البيضاء التي أصر على ارتدائها، بعد خروجه من المستشفى... مجرد هيكل عظمي، يتراءى عظامه بوضوح عبر الدشداشة الرقيقة... «لا ينبغي أن اقسو عليه... يكفيه ما تحمل من قسوة مرضه اللعين...» بعد كل شئ، قد يكون لديه ما يبرر هذا التعلق بطائره، هو بالنسبة اليه يكاد يلخص كل وجوده. فلا عجب ان ينصرف في هذا الوقت، على الرغم من حراجته بالنسبة اليه، الى طائره... وما ادرى الطفل بخصوصية هذه اللحظات التي هو فيها... وفي النهاية فـ(ناسوّس) هو الذي ملأ عليه فراغ حياته، لا جده، ولا ابوه بل ولا حتى امه...

ولكن أيمكن ان يكون حبه لطائر... طائر «كرر مع نفسه» موازياً لحبه لجده؟... بل ابعد عمقاً، وهو... هو بالذات، الذي كان بالنسبة له شيئاً... شيئاً هائلاً جداً... كما لو كان شكلاً آخرّ من اشكال الاستمرار في حياة باتت تطويها الايام والشهور والسنين في تعب، يعبر عن نفسه في جسم

يزداد انكماشه مع نفسه بمرور الايام والاسابيع...؟

***

- كل ما ارجوه ان يمتد بي العمر... حتى اسعد بمرأى ابنكما.

- وكل ما نرجوه نحن ايضاً ان يمتد بك حتى ترى حفيده ايضاً.

ثم اضافت داليا ضاحكة:

- ولكن... قد يكون بنتاً.

- لا يهم...

قالها بسرعة... ثم استمر:

- وان كنت، بصراحة، افضل ان يكون ولداً... ولكن لايهم... لا يهم كثيراً.

وراح الاب الكبير في حلم قصير، كان خلاله يتحدث:

- سادعوه «ئاسوّ»... اجل ئاسوّ...

ولفظ الاسم ملء فيه... ثم اعتدل في جلسته وسألهما وقد برزت سنتاه الاماميتان اثر ابتسامته المشرقة:

- أتسمحان لي بهذا الاسم.؟

وتوجه عقبه مباشرة نحو داليا:

- ها داليا؟

- بالتأكيد ياعمي... واذا... اذا كانت بنتاً...

- بنتاً؟...

وفكر هنيهة...

- ادعوها ئاسوّس... اجل ئاسوّس.

- «ئاسوّس»؟ باسم القبج؟...

- اجل باسم «القبج». ارجوكما... هل يمكن.

- لا عشنا اذا رفضنا لك رغبة...
- وانت يا فرهاد... ما رأيك...؟
- داليا... لا تتكلم عن نفسها فقط.
- بارك الله فيكما... لم يخب املي فيكما... أبداً... أبداً...
- ولن تخيب أبداً... تأكد.

***

ولكن هل صحيح ان «ئاسۆ» يحب طائره اكثر من جدّه؟ هل يدري الآن ما يجري لجده...؟...

حتى الآن لم تتأكد... بل لم تخبره اساساً. تجتر آلامك وحدك وتفترض من المقابل ان يدرك ما يجري في دخيلة نفسك وان يتجاوب معك بالشكل الذي تفرضه عليه... حتى ولو كان طفلاً في الخامسة.

- بابا... ماذا اردت ان تقول لي...؟

وتساءل... حقاً ماذا اردت ان أقول؟...

لا... لا انا ادري ماذا اريد ان أقول... ولكن لا ادري كيف أقوله لك... كيف اجعلك تفهم ما سوف أقوله.

في العام الماضي، حين مات بلبله الصغير ظل ثلاثة ايام ترين عليه الكآبة والحزن...

وبدا له ان تذكيره بموت بلبله ذاك... وما اورثه غيابه من الام أحسها ئاسۆ، قبل غيره... واعمق من غيره، قد يكون مدخلاً مقبولاً للوصول به الى ما يريد...

- ئاسۆ... اتذكر بلبلك الصغير؟

وصفن الطفل هنيهة:

- اي بلبل؟

- البلبل الصغير الذي جلبه لك العم جواد... جواد السائق؟
- آه... الذي مات؟... ها ؟
- اجل... اجل... الـ...
- اوه... القبج أحسن... القبج... لا يموت... ها... بابا...
وهم ان يسأله اتعرف ماذا يعني مات...
ولكن الطفل كان اسرع منه:
- بابا القبج احسن... من البلبل، اليس كذلك؟
ووجد الأب نفسه بدلاً من ان يسأله يجيب على سؤاله:
- بلى... بابا... بلى... القبج احسن...
انىّ لهذا الطفل ان يدرك ما يعنيه الموت... انىّ له ان يعرف ما يعني ذلك الغياب الأبدي اللا انساني لجزء من القلب... وذلك الحضور الدائم لحزن اسود يهد الجبل يقبض الروح... يتلف الاعصاب.

وخيل للطفل... ان اباه... ما دام حزيناً الى هذا الحد من اجل بلبله الذي مات، منذ زمن طويل... فلا بد ان يحزن أيضاً من اجل «قبجه» الجميل، العذب الغناء... ويبادر الى عمل شئ من اجله... خاصة... وهو نفسه يعتبره احسن من البلبل.
فقال بحرقة حقيقية:
- بابا... «ناسوّس» أيضاً يموت إذا لم نعطه شيئاً... يأكل.
ابتسم الاب، على الرغم منه، بمرارة، وتألق في قلبه الحب مجدداً لهذا الكائن الصغير الذي بات كل عالمه متقلصاً في طائر بديع يمنحه الفرح والروح.

أنهما متشابهان... متشابهان الى حد بعيد... هو الآخر طائر غرّد في حياتنا الصامتة.

قال بهدوء:

- اعطه شيئاً يأكل...

فسأل الطفل بسرعة:

- ماذا اعطيه يا بابا؟ لقد فرغ كيس «الحنطة».

وخرج الأب فجأة عن هدوئه، فقال بخشونة استغرب هو نفسه منها كثيراً:

- اي شئ... اي شئ... فقط اتركني الآن... يا ئاسو اتركني... حسب.

واستدار نحو جهاز التلفون بغيظ... وهو يتساءل بصمت:

«اما آن لهذه الجثة السوداء ان تنطق ثانية»؟

وازاء صرامة ابيه وحدة لهجته وأنصرافه على هذا النحو القاسي عنه... لم يملك الطفل الا ان يتركه...

«ماذا دهاه...؟ قبل قليل... لم يكن هكذا!».

لم يبتعد عنه سوى بضع خطوات حتى توقف بانكسار، وراح يختلس اليه نظرات كسيرة... «ماذا به باللّه؟ لماذا هو اليوم هكذا»

وإذ رأى أباه يرمقه، بدا له انه قد لمح في عينيه بريقاً خاصاً ذلك البريق الذي اعتاد أن يراه يشع في عينيه، كل مرة، بعد هنيهة قصيرة من ثورته عليه... ثم يعقبه احتضان وقبل... وتحقيق مآربه التي كانت البداية السبب في ثورته وهيجانه.

ولم يكد يلمح ظلال ابتسامة مموهة على شفتيه المتيبستين حتى هرع نحوه... ثانية:

- بابا... ماعندنا شئ...

- ابداً؟...

تساءل الأب، بنبرة، بدت كما لو انها صادرة عن انسان آخر.

شحنت الطفل باطمئنان كبير.

- اي والله بابا... ابداً... الكيس فارغ.

ودون ان يدع له فرصة أخرى يتصاعد فيها غضبه... طوقه بذراعيه الصغيرتين. وقال:

- انت لم تتسوق بعد...

- ها ؟

- هل تتسوق الآن؟

لم يكن الذهاب إلى السوق يعني اليه فقط الرجوع بأكل لـ(ناسوّس)، وانما هو مرتبط عنده أيضاً باصطحابه اياه معه... ونوبة كرم غريبة تنتاب الأب... فما يكاد يراه يرمق حاجة ما، حتى يبادر الى شرائها له، وقبل ان يفصح عن رغبته فيها... ثم يعودان معاً في عربة و......

- فيما بعد... يا ولدي... فيما بعد.

وتمادى الطفل في الاستفادة من الرقة التي بدا له فيها الاب:

- لماذا ليس الان يا بابا ؟

تساءل الاب:

- هل انت جوعان؟

ثم سرعان ما ادرك تفاهة سؤاله الذي لم يقصد به شيئاً عدا الاستمرار معه في الحديث.

أجاب الطفل:

- لا... بابا... ناسوّس جوعان.

- ناسوّس؟

وبدا كما لو كان الاب قد نسى الامر كله.

- اي بابا... حتى انه اخذ يعض اصبعي من الجوع..

- يعض؟

- اي والله... يريد ان يأكله.

- ابني... الطيور لاتعض وانما تنقر.

- اي... ينقر...

قالها الطفل مؤمناً على قول ابيه.

- اسمع ئاسوّ... افتح الثلاجة، قد تجد فيها شيئاً يصلح له... خيار كرفس... طماطة.

قال ذلك وهو يدري ان لا شيء مما ذكره يصلح طعاماً للقبج ولكنه أراد ان يلهي الطفل لحين... يعثر له على بعض الحبوب...

واذا اطمأن ئاسوّ الى المدى الذي بلغه في الاستحواذ على اهتمام وحب ابيه مجدداً... اعلن عن مخالفته اياه... فيما يتعلق بالطماطة...

- لا... بابا لا... الطماطة لا... لا.

وهز رأسه باستهانة... بينما تساءل الاب بجدية!

- لماذا لا...؟

وبمرح اجاب الطفل:

- الطماطة تخرس أصوات الطيور، ولا تدعها تغني ابداً.

واستأثرت ملاحظة الطفل باهتمام حقيقي من الاب:

- وكيف عرفت؟

أجاب الطفل بنبرة لم تخل من التباهي بهذه المعرفة التي يفتقر اليها ابوه:

- انا اعرف:

ولكن ازاء نظرات من الاب، تنطوي على قدر غير قليل من الاعجاب، فسرها الطفل على نحو مغاير تماماً... اجاب بصوت منتكس:

- حسين... يقول...!!.

- حسين؟

- اجل... هو يعرف كل شئ.

- ما يقوله حسين يصدق على البلبل... لا على القبج...

- لا... بابا... على كل الطيور... كل الطيور... هو يقول...

ووجد الاب نفسه امام ثقة ابنه الكبيرة بابن جارهم ذي السنوات العشر، صعوبة بالغة في مخالفته...

ولما لم يكن لديه ايّ فكرة عن وجود شئ افضل من الطماطة قال:

- القليل منها... لا يضر... اطعمه قطعة صغيرة فقط.

هز الطفل رأسه رافضاً:

- لا... بابا... لا...

ثم اضاف خشية ان يستاء منه ابوه.

- التمر جيد... يا بابا... التمر احسن شئ.

قال الاب ورغبته في الاستمرار في هذا النمط من الحديث. آخذة. بالتلاشي...

- صحيح... صحيح...

واستمر الطفل في حماس:

- التمر يجعله... يغني باستمرار...

كان واضحاً ان الطفل ينقل كل ما تعلمه من خبرة في تربية البلبل الى القبج... بالرغم من الاختلاف البين في تربية كل من الطائرين...

فقد تأكد ان ابنه من العناد بحيث لا يتنازل عن رأيه ابداً... وان الطائر قد استأثر بكل اهتمامه وبات معه على استعداد كامل ان يناقش ويحاور اباه حتى الصباح لذا رأى من الضروري ان يحسم الامر بشكل من الاشكال:

- حسنا... حسناً والآن اذهب وفتش له عن شئ... اي شئ طماطة... تمر... خيار كلها جيد... كلها جيد...

ولكن ئاسۆ... لم يتحرك...

- اذهب... يا ئاسۆ... اذهب اليه... قبل ان تخطفه القطة

- القطة؟... آ... صحيح... نسيت والله... نسيت.

وقفز الطفل خارجاً.

كانت تلك كذبة اخرى وجد نفسه مضطراً اليها... فهو يعرف ان القطط لا تجرؤ على الاقتراب من القبج ولكنه كان يريد ان يخلو الى نفسه... فلم ير بأساً في اللجوء اليها.

اشعل سيجارة اخرى... وراح يمتص منها انفاساً عميقة وهو يرقب بقلق متزايد التلفون ويرخي السمع الى الخارج، بمزيد من الاهتمام.

٥

- اما تزال هنا ؟

قالتها داليا، اول ما نزلت السلم، بدهشة، اذ وجدته قابعاً حيث تركته، يدخن بشراهة، ثم اضافت باستنكار مجيبة على نظراته المتسائلة التي رفعها اليها:

- حسبتك ذهبت لتأتي بالسيارة.

- خابرت الكراج... ووعدوا بارسالها الى البيت... وحتى الان لا سيارة ولا مخابرة منهم...

- والى متى ستظل تنتظرهم. ؟ الساعة جاوزت التاسعة والنصف... لماذا لاتذهب بنفسك الى الكراج.

- ها ؟...

- اليوم جمعة... ولو بقيت معتمداً عليهم... لانتصف النهار ونحن ما نزال هنا.

- آ... صحيح... اليوم جمعة... نسيت... والله نسيت.

وتوجه مباشرة نحو الباب، بينما تساءلت داليا باستغراب شديد:

- اين...؟

اجاب هو ببساطة متناهية:

- الى الكراج.

واتسعت حدقتاها استنكاراً:

- بالبجاما.؟

واضطرب اثر النظرة السريعة التي القاها على ملابسه. اجاب باضطراب:

- اوه... اللعنة... انساني الولد كل شئ.

تساءلت داليا بألم:

- الولد؟... أهو الولد حقاً؟

رمى عقب سيجارته وراح يصعد درجات السلم مسرعا على الرغم من الهم الثقيل الذي يرزخ تحته.

تناولت داليا عقب السيجارة من الارض والقته في سلة المهملات واخذت تبحث عن شئ ما في أرجاء الصالة، واذ لم تعثر عليه صعدت هي الاخرى تواصل بحثها.

- تنورتي السوداء... لا ادري ماذا حلّ بها.

ومع أن السؤال لم يكن موجهاً اليه، اذ كان واضحاً أنه لا يعدو نوعاً من التفكير الصامت، اتخذ له مخارج اصوات، فقد احس بما يشبه القشعريرة تسري في بدنه، وبشئ ما خانق يقبض على روحه...

«سوداء؟... لماذا سوداء؟... هل قضى الامر؟»

وارتعب من الفكرة، التي بالرغم من انها كانت بالنسبة اليه.

وقبل هنيهة فقط، تكاد ترتفع الى مستوى يقين جازم، وانه هو الذي أوحى بها الى زوجته وراح يرسخها في ذهنها بتصرفاته اللاحقة، فانه بدأ يقاتل ضدها، بضراوة، وعزا الامر الى تطرف غبي في تصوراته، واندلاق غير مسؤول لعواطفه المثارة... واخذ يشحن نفسه بافكار اخرى.

مناقضة؟ صحيح. مموهة؟ صحيح... غير واضحة ايضاً... صحيح... ولكنها غير سوداء... غير سوداء على الاقل.

اعاد القميص المقلّم، الذي امتدت اليه يده عرضاً من بين قمصانه، الى موضعه، ووجد نفسه دون اي تخطيط سابق، يبحث عن قميص اخر بلون مناسب، فاختار واحداً بلون اخضر داكن. واذ همّ ان يرتديه، تساءلت زوجته:

- اتحسب هذا اللون مناسباً؟

- ها ؟...

خيل اليه انها تستشيره، ولكن حين التفت اليها ولم يجد شيئاً في يديها، ايقن انها تتحدث عن قميصه بالذات، تجاهل الامر... وتساءل بعصبية:

- اي لون؟

- قميصك هذا الذي تلبسه.

امتعض:

- لا ادري... لا املك افضل منه.

اقترحت:

- اشتر لك واحداً حين نصل بغداد.

تحول امتعاضه الى استياء واضح، كشف عن نفسه عبر نبرته الحادة التي اضطر ان يخاطبها بها:

- لا ارى... اية ضرورة لذلك.

وراح يزرر قميصه بانفعال... كما لو ان احداً يهم أن يخطفه منه. ويتمسك به هو في عناد صبياني.

لم تحفل هي بحركته ولا بانفعاله...

- بل ضروري...

اكدت، باصرار غريب.

همّ ان يقول لها «الرجل لم يمت بعد... انتظري حتى تتأكدي من موته على الاقل...» ولكن لم تواته الجرأة... وندم على تفكيره تجاهها على ذلك النحو. اذ ادرك كم سيكون ذلك قاسياً ولا انسانياً... بل ومجانباً لحقيقة ما يعتمل في نفسها، هي الاخرى من مشاعر واحاسيس... وآلام...

تجاه الرجل الذي اعتبره كلاهما... أكثر من أب... واحالاه في نفسيهما الى صديق، صديق حقيقي، ومعلم... وموجّه... و...

«هي الاخرى يمزقها الألم» قال ذلك باقتناع تام «على النحو الذي يمزقني... ولكنها لا تكتفي بسكاكين الالم التي تقطعها من الداخل وانما تعمل على التعبير عما تعاني بشتى الصور، واللون الاسود الذي تحرص عليه، ليس اكثر من واحدة من صور الالم القاتل الذي ينخر فيها».

اكتفى بهزة من رأسه، أعتبرتها داليا علامة عن عدم اقتناعه:

- يكفينا ما مضغتنا الافواه... لقد تهرأت لحومنا ولم نعد قادرين على تحمل المزيد.

ذلك دأبها دائماً، تتصور ان ثمة اتهاماً مسبقاً موجهاً اليهما كليهما أو بالاحرى اليها بالذات، وبشكل خاص جداً، ربما بسبب الظروف التي رافقت زواجهما... حيث نشأ عنها اعتقاد، في أربيل، في العوائل ذات المواقف الخاصة ازاءهم على الاقل، بانها قد خطفت رجلاً وتزوجته، على الرغم من كل افراد أسرته وأسرتها ايضاً، وانها لم تعد يهمها شئ في كل العائلة عدا الشاب الذي سرقته.

وبالرغم من كذب هذا الاعتقاد وبطلانه. فان داليا قد استسلمت له، وعملت انطلاقاً منه، على ان تثبت العكس تماماً. عبر صنوف من المبالغة في التصرف، والحرص الزائد على المظاهر، والاستجابة المفرطة للعواطف الانية...

«دلشاد.»

«دلشاد يتحمل مسؤولية كل ذلك... هو الذي نفث هذه القذارة، لسبب ما يزال فرهاد يجهله...

وداليا... تتحمل المسؤولية ايضاً، كان عليها ان تتجاوز هذه التفاهات، لا سيما وهي قد تجاوزت الكثير، للوصول الى ذلك المرفأ

الانسـاني العظيـم، الذي تلتـقي عنده المشـاعـر النظيـفـة،... الصـادقـة... البعـيدة عن كل الوان الانانية ولكنهـا لم تفعل... لم تسـتطع ان تفـعل، ما تزال مستسلمة لتلك الاكذوبة... ان ذلك يحز في قلبي... »

احس، عندها، فرهاد باللا جدوى في المعـارضة، تحت أي شكل كـانت، بل وحتى في الاستمرار في الحوار بهذا الصدد. فقال باستسلام:

- حسناً... حسناً.

كان يريد اسكـاتها حسب، ولكنهـا لم تسـكت، اذ انها اندمـجت بشـكل ما في الصورة التي صنعتها لنفسها ولزوجها ايضاً:

- ربما تحتاج الى ربطة عنق... سوداء...

سوداء؟... هي الاخرى؟

و... وربطة عنق ذلك الشئ الغـريب المتدلى مـن الرقبه اشبه ببـقايا حبل من حبـال المشنقـة... الذي انقطع بعـد ان لفظ المحكوم عليـه بالموت شنقاً، انفاسه.

واسـتغـرب ان تكون هـذه المرأة قـادرة علـى التـفـكيـر في امـور تـافـهـة كـهذه، الى حد الاغـراق فيـهـا، حتـى في اشـد اللحظات مـأسـاوية. فـردد بآلية:

- ربما... ربما...

قـالهـا... اذ تبـادر الى ذهنه. انهـا ليـست تافـهـة بالنسـبـة اليـهـا، بالتأكيد... والا لما تعلقت بها الى هذا الحد.

ولكنه ثار على نفسـه، فـجأة، لاسـتسـلامـه لهـا على هذا النحو، وفي امور سـخيفة كـالتي تقوده اليهـا، وثار عليها ايضـاً لتعلقهـا بها الى هذا الحد اللامعقول.

قال بحدة:

- لماذا هذا الالحاح اللامعقول على المظاهر، الصدق الحقيقي هنا هنا...
وراح يدق على قلبه، بعنف.

ثم أن الرجل لم يمت بعد.

لم يقلها رداً عليها... بقدر ما قالها حرباً على احساس داخلي يصارعه بقوة.

هي... لم تغضب، لم تثر، ارتكنت الى سكوت غريب، كان الاحساس الذي يحاربه فرهاد، قد انتصر عليها، فقالت بعمق:

- لا ادري لماذا يا فرهاد... يخيل اليّ ان دلشاد لم يقل لنا الحقيقة.

بدا لفرهاد ان احساسه الذي يعمل على قتله، هو الذي يتكلم عبر كلماتها... فاخذ يتلوى، بينما استمرت هي، دون ان تدري، انها تنفخ الحياة في الوحش الذي يصارعه زوجها في داخله:

- وقد ادركت ذلك بنفسك قبلي...

تجسدت امامه مخاوفه كلها دفعة واحدة، كائناً خرافياً لا رأس له ولا أطراف ولا عيون... ولا اي شئ... سوى هواء من الرعب والاختناق، فثار عليه... على نفسه:

- لماذا هذا التعلق بكل ما اقوله... اني احياناً كثيرة اقول اشياء لا اعنيها...

آه... لو كان بوسع المرء ان يسترد ما يقوله في لحظة انفعال بعدما تهدأ نفسه...

ولكن مستحيل... مستحيل... فما تكاد الكلمة تخرج من الشفتين حتى تتمرد عليك وتخلق لها... كيانها الخاص، وتنشيء لنفسها العلاقة التي ترتأيها مع الاخرين... او يرتأيها معها الاخرون... وانت... انت خالقها... لا تعود بالنسبة لها... اكثر من صفر... صفر... تخرج لك لسانها استهزاء... كلما احتددت عليها...

- ما قلته لم يكن من الاشياء التي لا تعنيها... لقد قلتها بصدق... خاص...

آه... لماذا تمزقينني... الا تدرين ما تفعله فيَّ كلماتك. واستمرت تسمعه صدى افكاره... ومشاعره الخرساء:

- لو لم يكن الامر كذلك، لخابرنا امس... أو أول أمس...

وكغريق يجاهد أن يفلت من امواج شيطانية باتت تحاصره من كل جانب، اندفع خارجاً...

- سآتي بالسيارة...

وبينما هو يطوي درجات السلم كان ئاسۆ يصعد، فتوقف اذ التقى به:

- بابا... الثلاجة فارغة...

ووجد فرهاد نفسه يزعق بوجهه:

- اوه... ئاسۆ... كفاك... كفاك...

- ولكن القبح... يا بابا... القبح...

ولم يدعه يكمل، قاطعه بحدة، ودفعه الى فوق:

- اذهب الى امك... هيا... هيا.

٦

لم يصعد ئاسۆ إلى أمه، كما اراد منه ابوه، إذ خشي ان تكون الحالة الغريبة التي وجد فيها أباه، قد انتابت أمه ايضاً. فاكتفى بالصياح عليها من اسفل السلم، بعد أن اقتعد الدكة الاولى منه:

- ماما... ئاسۆس جوعان.

ولكن الام لم تجب، مما حمله أن يصعد درجاً آخر، ويصرخ بصوت أعلى:

- ماما... ماما...

وجاءه صوتها مستفسراً:

- ماذا تريد يا ئاسۆ...؟

اجاب وهو ما يزال قابعاً في مكانه:

- الثلاجة فارغة...

- ها؟. لا اسمع...

- الثلاجة... الثلاجة فارغة.

- الثلاجة؟ ماذا بها الثلاجة... لا أسمعك... صوت المروحة لا يدعني اسمعك جيداً... تعال هنا... تعال.

وحين هبّ واقفاً وهمّ أن يصعد، تذكر أنه قد ترك... ئاسۆس، في الحديقة. فأسرع الى ادخاله الى المجاز، غالقاً باب الحديقة، ثم اخذ يصعد درجات السلم بخفة ومرح، ولكنه ما كاد يرى أمه تعد الحقائب حتى نسي ئاسۆس وجوعه:

- ماما... نسافر؟

وأومأت داليا برأسها بالايجاب:

- أين؟ ماما... الى اين نسافر؟.

وقبل أن تجيب امه، اعلن عن رغبته بلهفة، عبر سؤاله:

- الى بغداد... ماما... الى بغداد؟

لم يكن سؤالاً... وانما كان دعوة وطلباً، اجابت امه باقتضاب ووجوم:

- لا... الى اربيل.

احس الطفل بخيبة:

- اربيل؟

وردد مع نفسه، اربيل؟... اربيل كما لو كان يسمع بهذا الاسم لاول مرة... ترى اهو مكان آخر... مثل بغداد، يفيض بالناس والسيارات والمخازن... و... و...

ونقل شكوكه الى امه:

- اربيل... يعني بغداد... ماما...

- لا... ابني لا... اربيل مكان آخر...

- افهم... افهم، يعني مثل بغداد... ها؟... على شكل بغداد...

واحست المرأة بضيق، جراء حصاره اياها:

- ابني اربيل... اربيل... وبغداد بغداد...

وواصل هو أسئلته:

- يعني... قريب من بغداد ها؟

قالت بضجر:

- ماذا دهاك يا ئاسو... كأنك لم تر اربيل طيلة حياتك...

- هل... هل رأيتها... سابقاً يا ماما...؟

- او ووه...

وانصرفت الى خزانة الملابس تبحث فيها عن علبة «الكلينكس» بينما

ظل ئاسۆ... يلاحقها باسئلته التي لا تنقطع:

- ماما... بيت من؟ بيت من في اربيل؟

اجابت سارحة الذهن:

- بيت جدو؟

- جدو؟...

وتسا ءل:

- قريب؟. لو بعيد...؟ ماما...

- بعيد ابني... بعيد.

واذ بدا لها انه قد استعذب الحديث معها وانه في سبيله ان يستمر في اسئلته، صرخت به، قبل ان يفتح فاه:

- اوه... ئاسۆ... انزل الى الحديقة... اتركني... اتركني...

سحبت بانفعال ورقة وردية من العلبة الكارتونية. وراحت تمسح بها عينيها... ثم مخطت فيها بقوة والقتها على الارض...

بتردد كبير، اخذ ئاسۆ يقترب منها... وبصوت لا يكاد يسمع سألها:

- ماما اتبكين؟...

اسرعت داليا تنفي حالة الضعف التي انتابتها امام ابنها، بالرغم من حرصها الشديد على تجنب ذلك امامه:

- لا... ماما... لا... ارفع يدك عن المروحة...

وسحب الطفل بسرعة كفه التي بسط اناملها فوق الشبكة المعدنية التي تحيط بالمروحة... وقال كما لو كان يحدث لنفسه:

- بابا ايضاً كان يبكي...

لم تجب داليا.

- هو ايضاً قال لا ابكي...

واذ لم تسكته امه تمادى:

- مع اني رأيت دموعه في عينيه...

ثم وجه السؤال مباشرة:

- لماذا تبكيان يا ماما...؟

وكادت الام تنفجر:

- اوه... ئاسوّ... ما هذا الالحاح؟. قلت لك اني لا ابكي.

لا ابكي...

خشى ان يقول، الدموع في عينيك... اني اراها... كما رأيت دموع ابي واكتفى ان قال بخجل:

- هل تعاركتما؟

اندهشت داليا من سؤاله... فقالت باستنكار شديد:

- تعاركنا؟... ما هذا الكلام يا ئاسوّ...؟

فتراجع ئاسوّ بضع خطوات... وقبل ان يتكلم صرخت به...

- قلت لك ابعد يدك عن المروحة

وهو يجرها قال:

- اقصد... اقصد هل ضربك بابا...؟

- ما الذي تقول يا ابني... ولماذا يضربني؟ من أين تعلمت هذه الكلمات...؟...

- حسين... يقول... ابوه وامه يتعاركان دائماً، وهو دائماً يضربها وتبكي... كل يوم.

- نحن لسنا مثلهما... نحن لا نتعارك ابداً... ابداً...

ولكن الطفل يبحث عن سبب لهذه الدموع... التي تغرقان فيها...

يبحث عما يهدئ نفسه في هذا الوضع الغريب الذي يراكما فيه.

تصلب ذهن الطفل عند نقطة لا يغادرها الى سواها:

- هل... هل... حدث شيء... يا ما ما؟

- لا قلت لك الف مرة... لا...

وهمت ان تصفع الطفل، واذ انكمش فجأة على نفسه اثر صرختها، جمدت يدها قبل ان ترتفع، ولعنت الشيطان في سرها... حاسة بندم هائل... فأكتفت ان قالت له بنبرة حاولت ان لا تجعلها تكشف عن انفعالها:

- انزل إبني... انزل.

واختفت كومة اسئلة في ذهن الطفل ولم يستطع ايّ منها. ان يبلغ شفتيه مرة اخرى، الا انه بالرغم من طلب امه جمد في مكانه ولم يتحرك.

- الا تسمعني... أنزل العب في الحديقة.

وبأنكسار شديد، اخذ الطفل يبتعد عن أمه، ولكنه لم يكد يسير سوى بضع خطوات حتى توقف... كانت الام ترقبه... وتصارع افكارا شتى في داخلها، ما ذنب الطفل حتى اقسو عليه الى هذا الحد...

- ماذا يا ناسو... ماذا ثانية؟

اجاب الطفل دون ان يرفع عينيه:

- ئاسوّس... يا ماما... ئاسوّس... ما عنده أكل...

وفتحت الام فاها دهشة:

- ئاسوّس؟

أجل... ئاسوّس... ئاسوّس... ودد لو يملك الشجاعة الكافية كي يصرخ بوجهها باعلى صوته... اجل ئاسوّس... ئاسوّس... اتسمعين ئاسوّس... ئاسوّس... الذي يكرهه كلاكما... لماذا؟ لماذا لا تحبان الطائر المسكين... هل

اسا ء اليكما... هل... واذ هم الطفل ان يتكلم صاحت به:

- اترك الماكنة من يدك.

كان ناسۆ.. قد التقط آلة الحلاقة، واذ سمع صرخة امه رضخ لامرها واعادها الى موضعها فوراً.

- انزل... ابني... انزل.

ودهش الطفل:

- وئاسۆس ماما... ئاسۆس يموت من الجوع...

همت ان تقول: موتة جدي... ولكنها اذ تأملت وجهه الشاحب تألمت له؛ وقالت:

- اعطه... شيئاً... لا تلعب بالراديو... ابني.

كان الطفل هذه المرة مد يده الى الراديو، يدير ازراره.

- الثلاجة ما بها شئ... وكيس الحنطة فارغ.

- في الرف الاعلى... يوجد خيار.

- الرف عال... تعالي انت.

- ابني انا مشغولة... الا ترى ما انا فيه...؟

ثم اضافت اذ وجدته ما يزال واقفاً في مكانه:

- فتش في المطبخ... قد تجد شيئاً في الدولاب... ناسۆ... الا تترك الماكنة... من يدك...

وانتبه الطفل الى انه قد عاد الى آلة الحلاقة الكهربائية... وانه يكاد يضغط على الزر الاحمر الذي فيها. فتركها وعاد مدحوراً... مطأطئ الرأس، بينما اخذت داليا، تدمدم:

- ئاسۆس جوعان!! عساه يأكل السم!!

٧

حين اخذت وطأة حرارة الشمس تزداد على قفاه، ويستجيب لها جسمه المكدود بمزيد من العرق يتصبب من كل مسامات جلده الذي تلاشت المسافة بينه وبين قميصه الداكن، انسحب فرهاد الى الخلف قليلاً، الى ظل الحائط الهرم الذي يسور سجن الحلة المركزيه حيث وقف بانتظار «عربة» من العربات التي تجرها الخيول، والتي اعتادت ان تقف في الفسحة الكائنة امام السجن، ولكن انتظاره طال... او بدا له انه قد طال اكثر مما ينبغي، تساءل بصبر يأكل رصيده «ما الذي يجري اليوم، لا اكاد ارى عربة فارغة واحدة»

القى عقب سيجارته التي احرقت نارها اصبعيه، وهو يرقب عربات عديدة تجرها خيول هزيلة، تعبى، ممتلئة الى حد الفيضان بناس ذوي سحنات مختلفة، واعمار متباينة؛ شيوخ مسنون، وكهول... ورجال في اكتمال الرجولة، ونساء مسنات وشابات وو... و. وما تكاد عربة من تلك العربات المحملة بهم تفرغ منهم، حتى تمتلئ مجدداً بناس اخرين... نماذج اخرى من الاصناف البشرية، سيل من الناس يندفعون نحوها ، حاملين سلالهم وحقائبهم وحاجات اخرى عديدة، يهجمون على العربات، يعتلونها من كل فتحة من فتحاتها التي تكون في متناول ايديهم، او بالحرى في متناول ارجلهم، بعشوائية وفوضى، غير مبالين اطلاقاً الى، صرخات الحوذي واحتجاجاته.

هز رأسه!! هيه... هيه...

مد يده الى جيبه، أخرج علبة سجائره ثانية، اخذ منها سيجارة، لقد فرغت العلبة، الا من سيجارة واحدة.

بحث بعينيه هنيهة، وقع نظره على بائع سيجائر مقرفص في شريط الفيء الذي كان سور السجن قد اسقطه على الرصيف وقد رتب فوق

سفرته التي فرشها فوق الارض، بضع علب سجائر وكبريت، الى جانب مجموعة كبيرة من العلك والحلويات والكرز والى يمينه قدر اسود، يحتوي حبات من الباقلاء المسلوقة تسبح في ماء قهوائي.

قال وهو يتناول منه علبة السجائر، بعد ان نقده الثمن:

- ما القصة؟... ولا عربة فارغة هذا اليوم.

- اليوم هو الأول من الشهر، وهو موعد مواجهة السجناء.

ثم سأله بعد ان تأكد انه ليس مع الذين يزدحمون للمواجهة:

- استاذ انت غريب؟...

- اجل... اجل...

وفكر" لا امل اذن... لا امل.

وتحرك مغادراً وقفته، بينما تبعه صوت البائع:

- لقد ادركت ذلك، انت ولا صغراً بك، لا تبدو من اهل الحلة... سحنتك تختلف عنا ولهجتك...

ولم يسمع ماذا قال عن لهجته اذ كان قد ابتعد.

كانت الساحة مزدحمة بالباعة الصغار، ينادون على مختلف البضائع وزوار السجن الذين يفصلهم هذا الجدار الهرم، عن اجزاء عزيزة منهم، مزروعة أو مدفونة... في هذه المقبرة الغريبة التي تطبق على ناس احياء، يتحلقون حول الباعة يساومون، يجادلون يحاورون. ولكن يشترون بسخاء، فتمتلئ السلال الفارغة، بالفواكه المختلفة؛ عنب... تمر. خيار... طماطة، وتنوء النساء تحت حمل السلال... وينوء الرجال تحت ثقل الرقي والبطيخ... و... و...

كل ذلك يجرى في صخب وضوضاء، اشبه بواحد من ايام العيد... العيد؟ يا له من عيد...!!

قالها نادماً على فلتة لسانه تلك؛ اي عيد هذا؟ انه واحد من أيام المأساة التي تكرر نفسها، تحت شكل جديد، في بداية كل شهر...

ولكنه عيد... ايضاً عيد بالنسبة للسجناء... وحتى اهلهم، كم كبيرة هي فرحة اللقاء... بالله... كم تسفح فيها المشاعر... والعواطف... عبر القبل والاحتضان... والدموع... ايضاً...

كان الناس يندفعون، بأحمالهم وأثقالهم، عبر بوابة السجن الكبيرة التي شقت من منتصف احدى ضلفتيها، فتحة لا تتسع لدخول اكثر من شخص واحد، تحرسها ثلة من افراد الشرطة مدججين بالسلاح مجللين بالعرق، تتسم تصرفاتهم بالقسوة والغلظة، يدفعون الزائرين بشراسة، لا يفرقون اثناء دفعهم بين شيخ تجاوز السبعين، وبين امرأة تحمل حياتين فوق عودها اليابس. وكثيراً ما يلجأون الى هراواتهم المتدلية من منتصفهم... وغالباً ما لا يقتصر استخدامها على مجرد التلويح بها.

اذ قد تصيب رأساً معقلاً، او تطرح عباءة، رجالية أو نسائية، على الارض. او ترضض عظاماً... والشرطي يزعق فيهم:

- واحد واحد... واحد واحد... قلنا واحد واحد...

واذ يدخل الواحد، او الواحدة، يتعرض في الداخل، عقب الدخول مباشرة، الى عملية تفتيش دقيقة جداً... يفلون حتى الملابس الداخلية احياناً... خوفاً من وريقة صغيرة بحجم الحمص تحمل بضع كلمات مضيئة... ويتساوى مرة اخرى الصغار والكبار... والرجال والنساء...

***

هو ايضاً قد تعرض ذات مرة، لتفتيش دقيق من النوع نفسه، بالرغم من انه لم يكن آنذاك قد تجاوز السابعة من العمر. وحين احتج العم الياس، الذي جاء فرهاد بصحبته، على ما يجري لهذا الطفل... قال شرطي يتدلى من تحت انفه مباشرة شاربان كثان.

- طفل...؟

وضحك باستهتار...

- ما يفرق... الكل يفتش... الكل... هذا امر.

وواصل عملية تفتيشه بقسوة، يديره في شتى الاتجاهات كما لو كان دمية، لا كياناً آدمياً من لحم ودم...

ثم قال بتباه، بالرغم من عدم عثوره على اي شئ:

- نحن لا يخفى علينا شئ، لقد خبرنا كل حيلكم والاعيبكم، تحملون الاطفال كل ما تخافون عن حمله بانفسكم... انظر الى ذاك... جيوبه ممتلئة بالمناشير السرية... ونظر فرهاد حيث اشار... كان ثمة طفل يكبره بضع سنوات، طويلاً، نحيلاً، يلبس دشداشة مقلمة يحاور الشرطي الذي يصفعه على صفحتي وجهه بقسوة، بعناد غريب...

- وحدي جئت... وليس مع احد...

- وهذه الاوراق من اعطاك...

- كانت في يدك انت... انا لم يكن معي شئ...

ابتسم العم الياس وتمتم وهو ينظر اليه باعجاب:

- بارك اللّه فيك... لتحرسك العذراء... انظر فرهاد... انظر، هكذا يخلق الشعب العراقي رجاله... منذ الصغر... من المهد... آه ما اروع ذلك...

قبل ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً اقتحمت شرطة «الشعبة الخاصة» منزلهم في اربيل، اثر تظاهرة... شعبية عارمة، اجتاحت المدينة كلها، من اقصاها الى اقصاها، اسناداً لفلاحي منطقة «راوندوز» الذين ثاروا ضد مصاصي دمائهم... ضد الاقطاعيين... اقتادوا اباه... أخوه دلشاد الذي يكبره بثلاث سنوات، ارتعب... التصق بأمه... وراح في عويل وبكاء، بينما وقف فرهاد يرقب ما يجري امامه مبهوتاً... بصمت فائر.

ربت أبوه على رأسه:

- دلشاد كن رجلاً... كن مثل اخيك... لا تبك...

واذ ظل دلشاد يبكي صرخ به. وهم ان يصفعه:

- لا تبك... لا تبك...

***

- تاكسي... تاكسي...

قالها بسرعة، اذ مرقت بجانبه سيارة فارهة، مشيراً بكلتا يديه... توقفت السيارة، مد رأسه داخلها، كان ثمة شاب انيق خلف المقود، انسحب معتذراً:

- آسف... آسف... جداً. حسبتها سيارة اجرة...

اجاب، بلا امتعاض:

- لا بأس... ايها الاخ... لا بأس.

يا الهي ما العمل...؟

اشعل سيجارة جديدة، وواصل نظراته، هنا وهناك، بأمل اقتناص سيارة اجرة... بعد ان يئس كلياً من الحصول على عربة فارغة

***

بعد حوالي الاسبوع، كانت امه والعم ألياس، صديق ابيه الحميم، وأخوه دلشاد، يستعدون للسفر الى الحلة... لزيارة ابيه في السجن.

تعلق فرهاد بالعم «ألياس»

- عمو خذني معك... أريد أرى أبي.

الا ان العم ألياس خيب رجاءه

- وداليا من يظل معها... اتتركها وحدها؟

- نأخذها معنا، هي الاخرى.

وتحمست داليا اكثر من فرهاد:

- اجل بابا... اجل... اريد ان ارى عمو...

وإذا بدأ على العم ألياس انه على وشك ان يلين امام رغبة الطفلين، تصدى لهما دلشاد:

- ما هذا؟... هل نحن ذاهبون للعيد...

ثار عليه فرهاد...

- ولماذا تذهب انت...؟

تدخلت الام:

- اننا نأخذ دلشاد معنا، كي يحمل لنا السلة... وفي المرة القادمة نأخذك انت...

- وأنا...؟

- انت ايضاً... يا حلوة.

- عسى ان لا تكون ثمة مرة قادمة... وعسى اللّه ان لا يريكما... يا ولدي الحبيبين.

قال العم الياس ذلك وهو يقبلهما، مودعاً، وهما يرنوان خلفهم بعيون مبللة...

ظلا لفترة، جامدين، يرين عليهما صمت متوتر، قبل ان ينصرفا الى العابهما...

***

ولكن اللّه... أو الشيطان... او قوة أخرى، لا يدري، قد اراه السجن. اراه، هذه البناية الرهيبة المترامية الاطراف بالذات. بباحتها الكبيرة المتربة، وغرفها العديدة المتداخلة المتسخة... فرأى كيف تذبل أبدان الرجال... كيف ينهشهم المرض، والوحدة والالم... ولكن عرف ايضاً،

بالرغم من كل ذلك، كيف ينبع في قلوبهم ربيع دائم الاخضرار... ورأى ايضاً كيف تتداخل الرجال في بعضها البعض دون ان يعرف احدهم الاخر... فيتقاسمون الخبز والمكان والمنام وقطعة الصابون، وموسى الحلاقة، ومعجون الاسنان والذكريات... والتاريخ... رأى كيف تخمد البراكين. وتهدأ الامواج، يربن عليها الوجوم... ولكن تظل تغلي من الداخل... يربن عليهم البؤس وتظل الشفاه تبتسم.

تفصلهم عن الناس جدران ومسافات وايام وشهور وتظل قلوبهم عامرة بحبهم. ويتجاوز التصميم، على الفناء في سبيلهم... نفسه، باستمرار، ويتعملق فيهم... حب الحياة... بشكل لا يقهر... انهم ملح الارض... ملح الارض...

حين عادوا من الحلة كانت ثمة مرارة في حلق العم «الياس» وامه... فجرها العم:

- لم ادر ان الرجل يحب فرهاد الى هذا الحد...

قالت امه باستسلام:

- المرة القادمة لابد ان نأخذه معنا.

- بالتأكيد وإلاّ طردنا من الباب.

***

- تاكسي... تاكسي...

ودون ان ينتظر كلمة من السائق، قذف بنفسه داخل السيارة اول ما وقفت. ثم قال باطمئنان إذ لم يطرده السائق:

- كراج بغداد... رجاء.

قدم له السائق، الذي كان لحظتذاك يشعل سيجارته، سيجارة...

وهو يقول...

- اخونا تبدو مستعجلاً...

- جداً... جداً...

اخذ منه السيجارة... بامتنان:

- شكراً... اخي... شكراً جزيلاً...

***

قال العم ألياس لامه.

- اسمعي... أم دلشاد... هذه المرة آخذ معي فرهاد

تساءلت امه بقلق:

- وأنا ؟

بينما تساءل هو بفرح:

- وداليا . ؟... داليا ايضاً عمو...

أهمله العم ألياس، ووجه حديثه الى امه:

- المسافة طويلة... والبرد هذا الشتاء، يفطس الخنزير...

- ما الذي تقول يا ابو عزيز... لا طول المسافة ولا برد الشتاء، ولا اي شئ يمكن أن يمنعني عن...

وإذ اعيت الحيل بيد العم ألياس، اعترف بحقيقة السبب:

- ماذا بيدي أنا... يا ام دلشاد... هكذا اراد هو...

- هو ؟

- قال لماذا تعذب المرأة... أجلب معك فرهاد فقط.

- ولكن...

- انه محق يا ام دلشاد... فلا تعاندي...

حين أبصر أباه، بعدأن أجتاز مراسيم التفتيش ركض الى ذراعيه، كعصفور اهتدى الى عشه بعد طول ضياع...

- فرهاد... حبيبي...

ولم تكد ذراعا الرجل تحيطان به... حتى اخذ هو يختض بينهما، ويلتصق بصدره، فابعدتاه... ثانية:

- ما هذا يا فرهاد.؟. الا تستحي.؟. انا الذي كنت... احسبك رجلاً... كيف تبكي

- فرهاد... اتبكي حقاً؟. ماذا جرى لك؟

قالها العم الياس بتأنيب، واضاف:

- ارأيت الصبي الصغير كيف واجه الشرطة كالاسد.

ثم اخذ يسرد على ابيه ما شاهداه... عند دخولهما.

- آه... لو رأيته يا باران... كيف أخذ يحاجج الشرطة.

يا عيني... راح يتهم الشرطة بانهم هم الذين دسوا المناشير في جيبه.

وارتخت ذراعا الرجل عن ابنه، وتساءل بقلق:

- اذن فقد اكتشفوا أمره... الاوغاد.

ثم قال بألم وحزن:

- واحد منا وشى به...

- منكم؟ كيف يمكن...

- منذ اكثر من ثلاثة اشهر وهذا البطل الصغير هو الرئة التي نتنفس من خلالها. يأتينا بالمناشير والاخبار.

لحظة... سأعود اليكما.

وحين نهض وتوجه الى غرفة اخرى، بدا لفرهاد، ان اباه... قد ضعف، وان شرواله قد غدا واسعاً عليه اكثر مما كان...

سأل فرهاد:

- ذلك الولد... هل ابوه هنا ايضاً.؟

- كل هؤلاء... آباء له... يا ولدي.

مع ابيه جاء مجموعة من الرجال... احاطوا فرهاد...

بحب، يقبلونه، يحضنونه، يعطونه الحلويات والموز... والتفاح...

سأله ابوه اذ رآه يعبيء جيوبه ببعض قطع الحلوى والتفاح... والموز...

- لماذا لا تأكلها... يا فرهاد؟

سكت فرهاد، الذي غاب عنه ان اباه يراقبه، خجلاً تكلم العم الياس...

- انا اعرف...

- ها فرهاد... قل ابني... لا تخجل...

واخذ الرجال، يشجعونه:

- هيا فرهاد... اخبرنا... هيا...

زاد احساسه بالخجل:

- هيا... هيا...

فاضطر ان يقول بصوت لا يكاد يسمع:

- لداليا:

هتف العم الياس:

- عرفت... بالمسيح عرفت...

ضحك الرجال... بينما اضاف العم:

- بالمسيح... الولد يحب إبنتي...

ضحك الاب بطلاقة:

- صح النوم... يا رفيق العمر... معلوماتك متأخرة... وصاح واحد من الرجال...

- متأخرة كلش...

وراح الجميع في ضحك متواصل...

ثم خلا الرجلان الى حديث خاص بينهما ، انصرف خلاله فرهاد الى التنقل بين نزلاء السجن الذين كانوا يستقبلونه بحفاوة عجيبة. يتحدثون اليه بشغف يتندرون بلغته العربية المكسرة... يسألونه عن الكلمات الكردية «اي كاكا... شنو التفاح بالكردي... اي كاكا... هذا شنو بالكردي... ذاك شنو بالكردي» ويضحكون بطلاقة غريبة....

وارتسمت في ذهن الطفل معالم عالم غريب... عالم رجال سعداء، بالرغم من كل شئ، كان هو الاخر سعيداً بينهم في غاية السعادة، تعلم كلمات عربية جديدة لم يكن يعرفها... هم علموه... فظل منطلقاً كعصفور في الفضاء... يحوم من شجرة الى شجرة... يتنقل من انسان الى انسان.

وحين حانت ساعة الفراق... اختنقت عيونه بالدموع

- لن تعود الى البكاء يا فرهاد... هه؟

وصاح اكثر من واحد...

- عيب كاكا عيب... أنت رجل.

احكم تطويق رقبة ابيه بذراعيه... يأبى فراقه:

- بابا... تعال معنا... بابا لا تبق هنا وحدك...

- لست وحدي يا ولدي... كل هؤلاء معي...

- كلكم اخرجوا...كلكم...

- في المرة القادمة... يا فرهاد... المرة القادمة... نأمل ان... لاتجد احداً هنا...

وراح احدهم يغمر الاخربالقبل... لمح دموعاً في عين ابيه... اخفاها بسرعة...

- خذه... الياس... خذه عني...

- هيا بنا يا فرهاد... هيا داليا تنتظرك... هيا ياولدي لا تزد عذابات الرجل...

بألم شديد راح الاب يفك ذراعيه عن رقبته ويدفعه برفق في احضان العم الياس... الذي احتضنه بحب أبوي غامر...

وأحاط به الرجال الآخرون...

كانت ساعات، لا تنسى... لا تنسى...

في البيت، بعد ان روى العم الياس. ما جرى. اضاف:

- بالمسيح... جعلني الملعون ابكي...

ولامته امه...

- كيف تبكي عنده، يا فرهاد...

قال بسذاجة:

- في المرة القادمة... لن ابكي واللّه...

قال العم الياس بحزن:

- لن تكون ثمة مرة قادمة.

اختضت الام...

- لماذا يا ابو عزيز؟... ماذا تقصد؟ ماذا سيفعلون بالرجل؟

- لاشئ... لا شئ... فقط قرروا نقله الى سجن نقرة السلمان...

- النقرة.؟. يا الهي...

- بلا عويل... ولا بكاء... قومي... أعدي لنا شيئاً نأكله...

وابتلع سجن نقرة السلمان ست سنوات من عمر ابيه ثم خرج منه محملاً، ببعض هدايا السجن، بذور الموت الخفية التي يزرعها في الانسان... التدرن... الروماتيزم... بالاضافة الى شلل جزئي في كلتا يديه، بسبب تعليقه لفترات طويلة... وبضعة كسور في اضلاعه... ومن يدري ماذا ايضاً كان يضاف الى القائمة... لو لم يفجر الشعب ثورته في تموز.

***

٨

اندفع نحو الامام بشدة، اذ توقفت السيارة فجأة.

أطل برأسه، كان ثمة موكب طويل من السيارات، يتقدم، عبر شارع المكتبات الضيق، واذ لمح السائق القلق في عيني فرهاد، قال بما يشبه الاعتذار...

- كان عليّ أن اسلك طريق الجبل.

سأله فرهاد...

- ما الذي يجري؟... لماذا هذا الازدحام؟...

أجاب السائق، وهو يبحث عن علبة السجائر، داخل السيارة، وكامر عادي جداً:

- جنازة...

وأضاف بعد أن أخذ سيجارة من علبة سجائر فرهاد، الذي كان أسرع منه في العثور على علبته:

- جنازة أخرى الى النجف...

ثم مال اليه... وقال مبتسماً:

- لقد غفوت بشكل جيد... يا استاذ.؟

- غفوت؟...

- كالطفل الرضيع.

قال بشيء من الارتباك:

- لا ادري... ربما... ربما...

- يبدو انك لم تنم ليلة امس...

يا اللّه... أهو تحقيق...

انصرف عنه، بالنظر الى الشارع...

احس بانقباض في روحه لمرأى سيارات التاكسي التي تشق طريقها ببطء شديد، ومشقة، وسط زحام يطبق على السوق، كالسلحفاة تتقدم الموكب سيارة طويلة، تحمل نعشاً مجللاً بقماش اخضر، تتبعها مباشرة سيارة من نوع «البيك آب» مفتوحة، اصطفت فوق مصاطبها الثلاث مجموعة كبيرة من النسوة والصبيان والصبايا، يلطمن الوجوه يشققن الصدور، وقد تكللت رؤوسهن بالاطيان والاوحال، كما لمح مجموعة من الرجال في سيارة اخرى، اصطبغت اكتافهم بالطين ايضاً، طين متيبس، متشقق.

ووجوههم الشاحبة البائسة، قد غدت اكثر شحوباً وبؤساً، بسبب من ظلال الشعر الذي لم يحلق، ربما منذ امس... او قبله... «لعل داليا تريدني. ان اكون كواحد من هؤلاء»...

مد يده، بلا شعور، الى وجهه الاملس، لم يتوقف عنده، اذ سرعان ما تركه، وأمسك بشعرات شاربه بين اصبعيه... وراح يفركها بعصبية.

غطى العويل الحاد الذي انطلق فجأة من السيارة الملأى بالنساء النادبات، على اصوات الابواق والصخب والضجيج، ازداد احساسه بالضيق والانقباض، ومع هذا فقد ظل يرقبهم بانشداد وذهول.

نهضت من بين الحشد النسائي في سيارة «البيك اب» امرأة متقدمة في السن، القت بالخرقة السوداء المطينة التي كانت تلفها على رأسها فانطلقت خصلات شعرها الابيض، تتطاير، هنيهة... ثم أمسكت بها بعشر أصابعها. تقتلعها من جذورها بهستيريا غريبة، وهي تفح كالافعى:

حوه... حوه... حوه...

وترد عليها النسوة الاخريات... بمزيد من اللطم والصراخ والعويل، اغمض عينيه على الم شديد راح يعصر روحه بقسوة تراءت له امه، وسط مجموعة من النسوة، تقطع شعرها و و و...

لا... لا... آه... يا الهي!

- لماذا لا ترجع الى طريق الجبل. ؟

خرج السائق من ذهوله:

- ها ؟... لا... اعتقد ان الموكب قد اشرف على النهاية.

ثم اخذ يتحدث الى احد سواق الموكب...

حصن فرهاد نفسه ضد الافكار القاتمة السوداء التي بدأت تحاصره بالتفكير في ئاسۆ... نقطة الضوء الاكثر اشعاعاً وتوهجاً، وسط العتمة التي باتت تحيط به من كل جانب... وتوشك ان تزحف على كل ما لم تشمله حتى الان.

احس بالندم...

لقد عاملت الطفل بقسوة لا مبرر لها... لماذا...؟ ما ذنبه...

وئاسۆس؟. كان ينبغي ان اعمل في سبيل توفير ما يأكله... حفنة حنطة تكفيه اياماً... لا يمكن ان نتركه، على اية حال، بلا اكل... ترى... هل عثر... له... ئاسۆ... على شئ... لعل امه... تعاونه في البحث، او تدبر له... شيئاً...

***

ئاسۆ!!

سأل اباه ذات مرة

- لماذا ئاسۆ بالذات؟

واضاف:

- ارجو ان لا تعتبر سؤالي اعتراضاً...

اجاب ابوه... وهو يبتسم. !

- ئاسۆ.. يا فرهاد... يعني الافق، كما تعرف، وانا احب الافق.

- فقط؟

ووسع الاب من ابتسامته.

لم يقتنع فرهاد... كل انسان يحب الافق، هل يتوجب على كل انسان ان يسمي ابنه، أو حفيده، أو عزيزاً عليه باسم «ئاسۆ»؟

وثمة اشياء كثيرة يحبها الانسان في حياته... هل يتحتم عليه ان ينجب على قدرها اطفالاً، لكي يحمل كل طفل أو طفلة اسم واحد من الاشياء التي يحبها...؟

وثمة اشياء عديدة يحبها الانسان... ولكن اسماءها لا تصلح اسماء لا للابناء ولا للبنات...

لا... لا... لابد ان يكون ثمة سر... ثمة شئ خاص لتعلق الاب بهذا الاسم بالذات...

وحتى حين قال الاب اذ لمح عدم الاقتناع في عيني فرهاد:

- ئاسۆ، بالنسبة لي يعني الكثير، يعني الوجود، يعني الدم الذي يتدفق في عروقي... يعني الدم الذي احسه فيك، في داليا... في عزيز... في صديق العمر ألياس في العديد من الناس...

- وئاسۆس؟ عمو...

سألت داليا.

- ئاسۆس؟

وراح الرجل في حلم عميق:

- ئاسۆس، يا أبنتي، جبل في كردستان، ضمن سلسلة جبال سفين.

- ما خصوصية هذا الجبل، بالاضافة الى جمال الاسم؟

- هذا الجبل، غدا لنا، في واحدة من اشد النكبات التي حلت بنا... امنا الرؤم... بسط علينا حمايته وحنانه فحفر ذكراه، في أعمق اعماق

وجداننا... فوق سفوحه، وبين كهوفه ومغاوره، عشنا ايام الرجولة... وكان بيننا وبينه ميثاق الرجولة...

***

اندفع فرهاد الى الخلف، اذ انطلقت السيارة الى الامام، وانتبه الى ان الموكب ما كاد ينتهي حتى اندفع السائق تلك الاندفاعة المفاجئة...

- آسف... كان لابد... والا مكثنا حيث نحن حتى منتصف الليل، فثمة جنازات اخرى... قادمة.

- جنازات اخرى؟

- من يدري... هذا الطريق لا يخلو منها عادة...

قال ذلك، واستدار بعنف نحو اليسار، وبصعوبة بالغة دلف زقاقاً ضيقاً، اجتازه بمهارة فائقة، ودخل الشارع العام، وبعد فترة وجيزة كان امام الجسر الحديدي القديم...

- جنازة اخرى قادمة... يجب ان اجتاز الجسر قبل وصولها، والا اعاقتنا.

وانطلق بسرعة فائقة، متجاوزاً بضع سيارات ومارة... وحين سأله فرهاد عن سر هذه الجنازات، اليوم بالذات، تهرب السائق... بفظاظة:

- لا اعرف...

ثم اضاف وقد تجهم وجهه:

- ولا اريد ان اعرف...

استغرب فرهاد جوابه كثيراً، فقال معتذراً:

- آسف، آسف جداً... لم ادر ان الامر يغيظك.

التفت إليه السائق، واخذ يتحدث إليه بصورة غريبة جداً...

- الامر، لا يغيظني فقط، وانما يمزقني... يقتلني، ولهذا لا اعرف... ولا اريد ان اعرف... ولماذا اعرف بحق الحسين؟

وارتبك فرهاد كثيراً، صعقته ثورة السائق المفاجئة:

- اعتذر اخي اعتذر... عن كل ما بدر مني...

ولكن سحباً قاتمة سوداء، كانت قد ظللت وجه السائق... بدا وجهه خلالها في غاية التجهم، وعيناه قد احتقنتا، حتى انه تناول الخرقة التي يمسح بها زجاج سيارته، واخذ يمخط فيها... ويمسح عينه والعرق المتصبب في صدره ورقبته... ووجهه...

لست وحدك المهموم يا فرهاد... ومن يدري... قد لا يكون همك شيئاً ازاء ما يحمله صاحبك من الهموم...

واجتاز السائق الجسر فعلاً، قبل ان تبلغه طلائع الجنازة القادمة.

وحين بانت سيارات بغداد رابضة في المرأب، ولم يلحظ على السائق انه في سبيل ان يتوقف... او يخفف من سرعته المتصاعدة، قال بتردد واضطراب:

- لقد... وصلنا الكراج... ايها الاخ.

- ها...؟

- الكراج... لقد اجتزناه...

التفت اليه السائق، بعينين محمرتين، اكدتا شكوكه وزادتا من اضطرابه وارتباكه...

- اقول... هذا الكراج... خلفناه وراءنا...

آنذاك... فقط داس السائق على الفرامل بقوة... فعاطت السيارة كأمرأة تنتحب.

وحين اخذ فرهاد ينقده الاجرة، أمسك بكلتا يديه:

- استاذ... اعذرني...

- بل... أ... أنا الذي اعتذر...

- ارجوك استاذ... حين قلت لك لا اريد ان اعرف، فانا اعني ما اقول... ولماذا اعرف...؟ لو عرفت، لوجب ان أتجلل بالطين كواحد من الرجال او النساء الذين رأيتهم...

- انا... اكرر أسفي... إذ...

- ليس هيناً على الانسان ان يعرف ان واحدة من هذه الجنازات، هي جنازة ابنه.

وارتعب فرهاد...

ايكون هذا الرجل مجنوناً... ما الذي يقول...

- ابنك؟

- في عمر الورد يا أستاذ... سجنوه منذ اكثر من سنتين... وحتى الآن لا أدري في اي سجن هو... وقد لا اراه الا في تابوت...

- ولكن...

- هل صحيح انهم يقتلون كل سجين يأبى ان يخون ضميره؟

- أخي المسألة...

- دعني... الحق الجنازة التي عبرت، اسأل عن صاحب الجثة...

من يدري... فقد يكون ابني... ابني الوحيد...

وانطلق بسيارته... تاركاً فرهاد في ذهول تام... ثم انتبه الى انه فعلاً يلاحق الجنازة... ويندمج في الموكب... فقال في نفسه بألم:

«مسكين يبدو أن قوة اكبر منه تسوقه الى ما يتهرب منه!!».

٩

ظل ئاسوّ يبحث في ارجاء البيت عن شئ يطعم به طائره، دخل المطبخ، فتح الكاونتر، قلب الاواني والصحون، كانت ثمة فتات الفطور، ما تزال فوق المائدة، عثر على كمية من اللبن... في واحدة من الاواني وفي اخرى على بقايا القيمر... توقف عند اناء اللبن، تساءل ترى هل يأكل ئاسوّس اللبن؟

وما ادراني؟

هز كتفه مستاء من جهله!

ثمة مسائل كثيرة لا يعرفها، لا بأس، قال لنفسه... حين اكبر اتعلم... غمس سبابته في اللبن... واذ ذاقه انكمش وجهه... حامض... اللبن حامض.

حسين، ذات مرة، قال له... انا لا اطعم بلبلي أي شئ حامض... لأن كل أكل حامض يخرس صوتة.

أذن فهو يخرس صوت ئاسوّس ايضاً...

ذرّ فوقه كمية من السكر، خبطها مع اللبن بسبابته، ذاقه ثانية... حلا طعم الخليط كثيراً... ولكنه ما يزال لا يدري فيما اذا كان «العبج»... يأكل اللبن أم لا... حلوه... أو حامضه...؟... حامضه لا... لا... بالتأكيد... ولكن الحلو منه... ربما... لا...؟ الا يأكل البلبل التمر... التمر حلو... واللبن قد اصبح حلواً... واذن.

عجز عن جواب شاف. فصاح على امه ثانية:

-ماما... العبج يأكل اللبن؟

ولما لم يسمع اى جواب، راح هو يأكله... يلطع سبابته بلذة... نبهه صوت القبج الى وجوده مجدداً، اصغى لغنائه الجميل بكل جوارحه وهو

يبتسم، ولكن فجأة تهشمت الابتسامة، وحل محلها وجوم على اثر انقطاع طائره عن الغناء. كل مرة يغني فيها اطول، ولكنه اليوم... جوعان...

ماذا افعل له؟... ماذا استطيع ان افعل... لماذا لا يسمعني احد منهما؟ مع من اتكلم اذن؟... هل اكلم الحيطان؟ ماذا دهاهما اليوم. ؟

توقف القبج عن غنائه تماماً... فجمدت اصبعة على شفتيه، ثم توجه حيث القبج واذ راه الاخير قادماً نحوه ادار له ظهره... «زعلان، من حقه... ان يزعل... حقه والله». وقف على مبعدة منه ثم اقترب من القفص، مد له اصبعه، توقع ان يمتد اليه ثانية المنقار الاحمر المدبب... ولكن القبج بدلاً من ان يقترب منه ظل لاصقاً بمؤخرة القفص، يرنو اليه بحزن وعتاب... «حقك... والله. حقك تعال بابا... تعال... تعال...»

ولكن القبج اذ أبصر كفاً صغيرة تدخل القفص من فتحة الباب تهم ان تمسك به، تحرك داخل سجنه حركة عنيفة في محاولة ان يكون خارج متناول اليد الممدودة اليه، فضرب اناء الماء الصغير... برجليه الحمراوين... وسفح ماؤه...

- وكيح...

صرخ به ناسو... متصوراً نفسه اباً مثل ابيه، يعنف ولده... ثم زاد من فتحة القفص، يدفع الباب الى الوراء اكثر، وتناول الاناء بيد، بينما شبك اصابع اليد الاخرى على فتحة الباب، يمنع فرار الطائر واذ التقط الاناء اعاد الباب الى وضعه الاول، وتوجه نحو صنبور الماء ليملأه ثانية.

ولكنه لم يكد يقترب من «المغسلة» حتى شق الصمت المخيم على ارجاء البيت، رنين التلفون مرة اخرى... فترك الاناء وهرع نحو التلفون ولكن قامته القصيرة قصرت عن موضعه، فتراجع مدحوراً، وقف اسفل السلم:

- ماما... ماما... تلفون...

وأسرعت داليا بالنزول...

- ماما... تلفون.

كررها ئاسۆ...

- اسمع...

قالت داليا باقتضاب.

كان التلفون ما يزال يرن.

- الو... من؟ ها؟... عزيز؟. عزيز مرحباً...!

صاح ئاسۆ بفرح طائر:

- خالو؟. يا ماما... خالو؟

اجابت داليا بسرعة:

- اجل ابني... اجل... والآن دعني اسمعه... دعني... الو... لا... لا... انه ئاسۆ... جيد... جيد... ها تتكلم معه؟... مع ئاسۆ؟... كان ئاسۆ... قد ابتعد باتجاه المغسلة حيث ترك «الطاسة» حين نادته امه:

- تعال ئاسۆ... تعال... خالك يريدك...

- انا؟...

وكاد الطفل يطير من الفرح... ولم يصدق الا حين وضع السماعة بين كفيه الصغيرتين... وامه تشدّ له قبضته عليها:

- هكذا... هكذا... هل تسمعه...؟

- لا... انه... ساكت...

- انت كلمه... قل له... كيف حالك يا خالو...؟

- الو... خالو... كيف حالك؟ يقول جيد... يقول جيد...

وربتت الام على رأسه... بينما كان هو ما يزال يتحدث الى خاله:

- انا ؟... انا ايضاً جيد... لا... انا احسن منك. «ثم لامه» يقول هو احسن مني... «تضحك الام» ها... كنت العب مع «العبج» لا... يغني... جوعان... ها... بابا...؟ خرج... لا ادري... خرج من الصباح... ها... ماما... هنا... ماما... ماما... يريد...

وخطفت داليا السماعة من ابنها:

- هات... ابني هات... الو... عزيز... لا... لا... لقد خرج... ليجلب سيارة اجل... اجل... يا عزيز... بالتأكيد... نحن قادمون... لقد... تأخر. لا أدري لماذا... بسبب الازدحام حتماً... اليوم جمعة... ورأس الشهر وتصور وضع السيارات في الحلة... لا سنأخذ سيارة الى أربيل مباشرة... قطعاً أحسن... عزيز... قل لي... كيف الآن؟. تدهور... اسمع... بصراحة اخبرني... اما يزال باقياً... حسن... حسن... ذلك ما كنا نخشاه فعلاً... ان لا نحظى بالنظرة الاخيرة منه... عزيز... وماما...؟ ماما عندهم أيضاً... ان وجودنا ضروري... ابداً... أبداً وحق بابا... لا بالمسيح... لا... انا لا احمل اية ضغينة ضد اي منهم... أجل وحتى دلشاد... صدقني حتى دلشاد كيف تسمح لنفسك ان تتصور الامور على هذا النحو الغلط...؟. حسناً حسناً عزيز... بلغ تحياتنا للكل... مع السلامة... مع السلامة...

واضافت بعد ان تركت السماعة... مع السلامة... يا حبيبي.

تساءلت، بعدها بقلق:

- لماذا تأخر الى هذا الحد... ماذا حل به...؟...

ولم تتوقف عند اسئلتها طويلاً، اذ اسرعت تصعد... تكمل تهيئة الحقائب، ولكنها لم تكد تبلغ السلم، حتى توقفت ثانية القت نظرة على الساعة، كانت تقترب من الحادية عشرة...

- لا... لقد تأخر اكثر مما ينبغي...

ونفد صبرها...

وبدلاً أن تصعد الى غرفتها... توجهت نحو الباب الخارجي... تزرع الطرقات بنظراتها القلقة.

وانتبهت الى ئاسوّ يقف الى جانبها.

- ماما... اين ذهب بابا...؟

قالت وهي تسد الباب وتعود الى الداخل ثانية:

- ذهب ليأتي بسيارة.

- سيارة؟... هل نسافر لبيت خالو؟

ربتت على رأسه بحنان:

- اجل... بابا... اجل...

ولكن الطفل الذي كان يسير لصقها، محاولاً ان لا يتقدم عنها ولا يتأخر كي لا تبتعد عن رأسه يدها التي تداعب شعره، توقف فجأة، توقفت هي الاخرى... نظرت اليه بدهشة:

- ها... ئاسوّ... ماذا بك...؟

قال الطفل باستنكار.

- انت قلت بيت جدو.

استاءت المرأة:

- اوه... وما ادراني ما الذي اقول... تعال... تعال...

وتركته حيث هو بينما اسرعت تدخل البيت، لحق بها ئاسوّ عدواً.

واخذ يتمسح بها:

- وئاسوّس؟... ماما...

- ماذا به ثانية...؟

- هل... هل ناخذه معنا؟

- معنا؟ ما الذي تقول... عاقل انت ام مجنون؟

- ماما... الله يخليك... ماما...

- لا... ابني... لا.

قالتها بحسم، بينما راح الطفل يحتج...

- ولكن كيف نتركه وحده... القطط تأكله...

- اتحسبه عصفوراً صغيراً... القطط نفسها تخافه.

- بابا... قال... القطة تأكله...

- سنغلق الابواب والشبابيك، فمن اين تدخل القطة؟

- ولكن... ولكن... ماما... من يطعمه... من يسقيه الماء... إذن...

واعجبت الأم بذكاء ابنها وقبلته باعتزاز وهي تقاطعه:

- اسمع ئاسۆ... لا تثرثر اكثر... سنتركه في بيت حسين... يرعاه لك لحين عودتنا.

وتحمس الطفل للفكرة التي وجدها افضل تحقيق لفكرته هو، فصرخ مبتهجاً:

- والله... احسن فكرة... يا ماما.

وارتاحت الام لابتهاج ابنها... ولكن ئاسۆ لم يلبث ان أضاف متسائلاً:

- هل آخذه الآن:

- الآن...؟ لا... ابني لا... سيرجع ابوك في اية لحظة. حين نخرج نسلمهم اياه من الباب.

وفتر حماس الطفل بعض الشئ اذ تذكر جوع الطائر:

- والاكل ماما؟

- ها؟

- ئاسۆس الآن جوعان... جوعان لا يستطع الوقوف على رجليه من شدة الجوع... انظري اليه ماما... انظري...

- لا... هذا بسبب الحر...

ثم سألته:

- الم تجد شيئاً في الثلاجة. ؟

- لا... ماما... لا ابداً...

- لا بأس... لا بأس، سيطعمه حسين حتى يجعله يتخم... والآن تعال معي تعال، ابدل لك ملابسك فانت ما تزال بالدشداشة... لقد نسيتك نسيتك تماماً...

قالت ذلك واخذت الطفل من يده، ولكن ناسوّ لم يرضخ:

- دعيني اطعمه شيئاً اولاً...

- ليس الآن... يا ولدي... ليس الآن... لا وقت لدينا... هيا... هيا... معي.

واخذت تدفعه نحو السلم.

ولكن حين سمعت صوت سيارة في الخارج، تركت ناسوّ حيث هو... وهي تقول بارتباك:

- يمكن رجع... لعله... هو... انتظر... انتظر.

وركضت الى الباب الخارجي ثانية...

لم ينتظرها ناسوّ، كما ارادت امه، اذ انه لم يكد يرى الاناء الفارغ فوق «المغسلة» حتى ركض نحوه... يملؤه.

١٠

العثور على طائرة بات اسهل من العثور على سيارة. قال فرهاد ذلك بألم حين ادار سائق آخر مقود سيارته هازاً رأسه بالرفض:

- اربيل؟... لا... سيد... لا.

ان هذا لا يطاق...

هكذا الامور دائماً... حين تكون في منتهى العجلة، تستبطئ، مرور الثانية الواحدة، وتعدها قرناً كاملاً، ثم ترتضي مرغماً بمرور هذا القرن. على ذلك النحو الذي تتلف كل دقيقة فيه، بعضاً من اعصابك، تتكاسل الدنيا كلها... حتى تتوقف عند نقطة واحدة، متحجرة بشكل تام... لا تريمها... ابداً... ابداً...

كان السائق، الذي اوصله، هو لاصقاً بذهنه بشكل لايريمه... أي بؤس ان يبحث الانسان عن ابنه، هذا الجزء الحي منه، بين... بين الجنازات... اه...

- اخي. ارجوك... أريد سيارة الى اربيل... هل...

- اربيل... لا... عزيزي... لا...

والآن ما العمل... يا فرهاد، فهذا هو السائق الثالث الذي يرفض الاستجابة لرجائك... مرة اخرى ما العمل يا فرهاد... لا... لا... لا ينبغي ان اقنط... لابد ان يكون ثمة مخرج... لابد... لابد... لو... لو اغريتهم بزيادة الاجرة... بجعلها مضاعفة مثلاً...

وتحسس جيب سرواله... اخرج كل ما يحمل من نقود، عدها... عشرة دنانير... وبضعة دراهم... تكفي! وبعد اقراره مباشرة تساءل... ترى اتكفي؟

فكر... ما يزال ثمة مبلغ، لا ادري كم هو، في البيت... يمكنني أن

اضيفه عليه... و... ولكن، وفي غمرة انشغاله بما بقي وبما لم يبق من مصروف الشهر وسواه... نسى السؤال الاساسي «اتجدى الزيادة...»

جرب على اية حال... أأجرب؟... أجرب مع من؟ هل فسح لي احدهم المجال؟ هل طلب شيئاً ورفضت؟ ان الواحد منهم ما يكاد يسمع اسم اربيل حتى يسد اذنيه عن أي حديث بعده... كما لو كانت اربيل قد غدت جهنم، فغرت فاها لابتلاعه... اه... يا الهي... والمسؤول عن الكراج الذي خابرته:

- اخي خابرتك من البيت بشأن سيارة الى اربيل...

- اوه... لا يرضى احد من السواق.

- كان عليك ان تخبرني، ولا تجعلني انتظر كل هذا الوقت...

اجاب ببساطة:

- نسيت... آسف... نسيت.

- ولكن...

- حاول بنفسك يا اخي... ها انت مع السواق وجهاً لوجه... لعلك تستطيع ارضاءهم...

وتوقف عند «لعلك تستطيع ارضاءهم». اذن... لو... شرحت لهم الحالة... لو زدت لهم الاجرة...

- اخي ارجوك... اسمعني، اسمعني فقط... واذا لم تعجبك المسألة أرفض... كما تشاء...

وارتضى الرابع ان يستمع اليك، أو بالحرى ارغمته على الاستماع اليك... ولو لم تمسك بمقود سيارته بكلتا يديك... وتدخل نصفك العلوي فيها... لكان له شأن آخر معك... لكان شأنه شأن الآخرين... فرّ منذ الكلمة الاولى...

- اخي ارجوك... الحالة خطيرة... جداً... ابي... ابي على فراش الموت...

يجب ان اكون عنده في لحظاته الاخيرة، هل تفهمنى ادفع لك ما تشاء... فقط اطلب... اطلب اي مبلغ تريد... ارجوك ساعدني... حاول ان تفهم وضعي...

واخذت تغور في جرحك، تنثره امامه حديثاً مدمى ولكن ما اصعب التواصل، مع انسان، كل ما فيه يختلف عن كل ما فيك... مستحيل... مستحيل، مهما قلت، مهما فعلت في... جرحك توغلت... فلن تجعل المقابل يحس بعض ما تحس أو يعاني جزء مما تعاني... او يرى شيئاً مما تري...

- آسف... آسف... المسافة بعيدة والسيارة ليست ملكي.

- ارجوك... اخي...

- سيد، الطريق يغلق في الخامسة

اتحسبنى صاروخاً...

- ادفع لك... ما...

- آسف... ليست المسألة مسألة دفع اطلاقاً... آسف...

- و... ولكن...

- انت تفكر بمصلحتك... وانا ايضاً افكر بمصلحتي... ارفع يدك عن المقود رجاء...

-آ... آسف... آسف...

افكر بمصلحتي؟ افكر بمصلحتي... لو كنت اذهب لحفلة عرس... او لمجرد زيارة عادية... اكنت اتعلق بالامر الى هذا الحد.؟ افكر بمصلحة رجل عزيز عليٌ اريده ان يموت قرير العين... لا اريده ان يموت ويترك موته في قلبي حسرة، تاكلني حتى تقتلني... آه... افهموني... ولتلتقي مصلحتان... مصلحتان فقط... اه... يا الهي...

لقد انتصف النهار وانا ما ازال هنا كأي تمثال خارج عن قانون الحركة...

اسمع يا فرهاد... لماذا لا تسافر الى بغداد... ربما يكون بوسعك ثمة ان تعثر على سيارة... او تكون قد قطعت جزءاً من المسافة على الاقل... جزءاً من المسافة؟ وما جدوى هذا الجزء الذي اقطعه؟...

احس بعطش في حلقه... جعل طعم الدخان مراً، غاية في المرارة، القي بالسيجارة بالرغم من انها لم تنتصف بعد، اقترب من حانوت... تناول زجاجة «سفن» لم يرتو... طلب ماء من صاحب الحانوت... اجابه... حار... سيد... حار... تركه وتوجه نحو صنبور ماء وسط باحة المرآب، ملأ كفيه... وراح يعب منه... لم يبال، كم يبدو فعله هذا غريباً، لا سيما وقد كان ثمة مقهى قريب منه...

لابد ان افعل شيئاً، لا ينبغي ان اترك اليأس يشلُّ قدرتي على اية حال...

وقرر...

ارجع الى البيت فوراً... هي مستعدة الآن حتماً... أأتي بها الى الكراج، وننطلق الى بغداد...

وتقدم من الشارع العام... بانتظار عربة تقله الى البيت... ولكنه اذ ابصر سيارة جواد، السائق الذي يأخذ زوجته الى المدرسة... مع بقية المعلمات، من بين مجموعة من السيارات تتقدم باتجاه المرآب تهلل وجهه... واخذ يلوح له:

- جواد... جواد... ابو كاظم... يا ابو كاظم...

ونزل جواد من سيارته متجهم الوجه... وقبل ان يفتح فرهاد فاه... اقبل نحوه... واطبق بكلتا يديه... على كف فرهاد التي امتدت لمصافحته... ولم يكتف بذلك، بل اخذ يضم فرهاد الى صدره مما اوقعه في حيرة... وكان لابد ان يضع حداً لكل هذا:

- جواد... المسألة...

وقاطعه جواد بصوت متقطع:

- أعرف... كاكا... أعرف...

- تعرف؟...

- أم ئاسو... كانت على الباب... يبدو انها خرجت على صوت السيارة...

اخبرتني بكل شئ... هل صحيح يا فرهاد... هل صحيح ان ابا دلشاد يعاني سكرات الموت...

اجاب فرهاد:

- اجل... ابو كاظم... صحيح...

قالها بالم... وهو يتمنى ان لا يكون الأمر كذلك.

- قل سواه... يا رجل... قل سواه... لقد كان دائماً كالاسد... ماذا جرى له... لا حول ولا قوة...

- المهم... يا ابا كاظم... منذ اكثر من ساعة اتوسل بهذا السائق وبذاك، ولا احد منهم يوافق...

قال جواد بحزن:

- والله... يا كاكا... يا حبيبي... انت أدري الناس بمكانة ابيك في قلبي... ولكن سيارتي متهدمة... و...

- لست افكر بسيارتك يا ابا كاظم... فانا اعرف... وانما ربما كان بوسعك ان تدبر لي الامر مع احد السواق... من معارفك.

وتحمس جواد:

- اعتمد عليَّ كاكا... اقلب لك الحلة كلّها... انتظرني هنا...

- لن أتحرك لحين مجيئك...

واذ اندفع ابوكاظم بسيارته، ندم فرهاد «لماذا هنا... لماذا لم اقل له... في البيت... أوه... المهم...»

وتسلل خيط من الراحة والهدوء الى نفس فرهاد القلقة... المضطربة، ليس فقط لان مهمة شاقة، اخفق عن تحقيقها، قد زالت عنه، وانما لان واحداً من اكثر الناس الذين التقى بهم فرهاد صدقاً واخلاصاً... قد تكفل بالمهمة...

واقتعد دكة في المرآب... وقفز ثانية الى ذهنه السائق الباحث عن ابنه بين الجنازات... «نسيت اسأل جواد عنه. لاشك انه يعرفه. سأسأله حين يعود... لابد أن اعرف سر هذا الرجل»

واذ تذكر امراً خاصاً جداً، اخرج من جيب سرواله الخلفي ورقة صغيرة وكتب فيها بضعة اسطر... ثم طواها، بعناية بالغة، وظل يطويها حتى غدت بحجم حبة باقلاء... ضمها بين اصابعه، بانتظار عودة جواد... ورداً على سحائب خفيفة من الشك اخذت تحوم في ذهنه قال:

- ما المانع...؟ لن اجد في هذا الظرف افضل منه... ليس في ذلك اى بأس... جواد... انسان رائع... رائع حقاً...

***

في نفس سجن الحلة المركزي... ويا للمصادفة الغريبة!!

اجل في السجن نفسه، التقى بجواد عبد الامير كان فرهاد آنذاك في الصف المنتهى في الكلية، حين القى القبض عليه، مع مجموعات كبيرة من الناس من قطاعات متباينة، عمال، فلاحين، طلبة، كسبة، عاطلين... نساء رجال... صغار كبار... في عشوائية عمياء.

وبعملية اشبه بالقرعة تمت، بعد أن فاضت سجون بغداد ومعتقلاتها بالافواج التي تدفع اليها دفعاً كل يوم، اقتيد هو... ومجموعة من الطلبة الى سجن الحلة ولم يكن سجن الحلة بافضل من سجون ومعتقلات بغداد

وربما كان كذلك شأن كل مدن العراق، اذ حين بلغه كان يفيض بنزلائه وكل يوم يتدفق نحوه فوج جديد. أو «موجة جديدة». على حد تعبير المسؤول آنذاك- حتى بات معه سعيداً كل السعادة ذلك المحظوظ الذي يعثر على بضعة سنتمترات من الارض، يقتعدها... مريحاً جسمه المكدود... لا... حين زار أباه فيه صغيراً كان الوضع افضل، صحيح البناية كانت اصغر... ولكن النزلاء كانوا اقل عدداً، اقل... بما لا يقارن بوضعهم الحالي...

ذات يوم ومع تدفق وجبة جديدة على السجن جاءه «المسؤول وكان انساناً طريفاً، رائعاً، لم يعرف اليأس، ولا الضعف، بالرغم مما كان يلقاه من تعذيب يومي، طريقاً الى روحه، قال له بدعابة:

- ضمن «الموجة الجديدة» صديق يسأل عنك...

حسبها واحدة من دعاباته... اجابه فرهاد:

- كل اصدقائي باتوا قسمين، احدهما التحق بالجبل والآخر يعيش معي هنا... والاصدقاء الجدد، لم تلدهم امهاتهم بعد.

- فرهاد... صدقني... لست مازحاً... وهو يدعى جواد.

- جواد... لا اذكر اني اعرف صديقاً بهذا الاسم،

المهم... اين هو؟

ووجد فرهاد نفسه امام رجل تجاوز الاربعين، قوي البنية، محروق الوجه، ذي عينين حادتين... يرتدي معطفاً متهرئاً... كلح لونه... حتى بات معه في لون جلده... المحروق...

تأمل فرهاد وجهه الاسمر... المشعر... وعبثاً حاول ان يتذكر اية علاقة سابقة من اي نوع كانت بهذا الرجل والرجل، هو الآخر، ظل جامداً، واضح انه ايضاً لا يعرف فرهاد... لم يسبق لاي منهما ان التقى بالآخر.

- ما بالك... هذا هو فرهاد... فرهاد خوشناو الذي تسأل عنه...

ولم تكد اذناه تلتقطان الاسم، حتى وجد فرهاد نفسه بين ذراعي الرجل، يطوقانه، يغمره بالقبل، بحنان وشوق اب عثر على ابنه بعد طول يأس.

- فرهاد... اذن انت فرهاد... اه... دعني اشم فيك رائحة ابيك.

واختض فرهاد

- أبي؟. هل جرى له شيء؟

واسرع الرجل ينفي تصورات فرهاد...

- لا، لا... ابداً... ان اباك يا حبيبي... عظيم... عظيم وحق امير المؤمنين...

واخلى لهما بعض المعتقلين مكاناً، اذ احسوا ان لدى الرجل ما يفضي به الى فرهاد...

كنت معه... مع ابيك فوق جبل «ئاسۆس» ضمن المجموعة التي تعسكر هناك، نتجاذب اطراف الاحاديث... ونحتسي... الشاي... شاي «الدشلمة»... اتعرف هذا النوع من الشاي؟ ها ها ها... ما علينا... قلت كنا نحتسي الشاي حين قال ابوك فجأة:

- اتدري أيها الحلاوي... ان ابني معتقل في بلدتك؟

شعرت، ولا اخفي عليك، بخجل منه، وحقد على بلدتي:

قلت بمرارة

- لم تعد بلدتي...

غضب ابوك.

- لا... يا حلاوي... لا... كل بقعة... كل شبر من الوطن... لنا... ملكنا... ولن تجعلنا الظروف مهما قست ان نتخلى عن شيء منه..

زاد احساسي بالخجل... هذا الرجل يتعامل مع الوطن كما يتعامل الانسان مع اعضاء جسمه... هذا الجزء عيناه وذاك قلبه... والاخر عقله...

يا له من رجل... المهم... انت اعرف به مني قطعاً... لا اطيل عليك... بعدها بأيام كلفت بمهمة خاصة في كركوك. دخلت المدينة مع اشراقة الفجر... انجزت المهمة... وبدلاً من ان اختفي منتظراً هبوط الليل حتى اعود الى موقعي. لا ادري لماذا قطع عقلي السخيف ان اتجول في المدينة. قلت يا جواد معك شئ من النقود... والجماعة هناك بحاجة الى السجائر... بحاجة الى الجواريب... فلماذا ترجع اليهم خالي الوفاض...

وانا اتجول... احسست بان احد الجواسيس يتعقبني يبدو انه قد تعرف عليَّ... حاولت ان اتخلص منه فلم استطع... الكلب... لقد استحال ظلاً لي... اينما... اذهب هو معي... قلت في نفسي من باب العزاء... المهم قد انجزت مهمتي... ليفعل بي ما يشاء، فقط ينبغي ان احذر من ان يتعرف على طريق مواصلاتنا... ذلك هو ما كان يريدني ان ادلّه عليه. ولهذا لم يعتقلني اول ما... رآني... وانما ظل يتعقبني على ذلك النحو الذي ذكرت... جلست في مقهى في سوق القورية، جاء وجلس بجانبي... قلت ليجلس ماذا اريد منه... طلبت... زجاجة بيبسي كولا... ولكنه، لم يدعني اذوقها... اذ أحسست بفوهة مسدسه تنغرز في يساري... قال لي:

- ستأتي معي، وبلا كلمة واحدة، يا سيد جواد عبد الامير الحلاوي...

قلت:

- من تقصد... انت غلطان... انا لا اعرفك.

- ولكني... اعرفك... اعرفك جيداً... وهذا هو المهم... ثم أشار الى اثنين اخرين، كانا يلعبان «الدمينو» وهكذا قادني ثلاثتهم الى مركز للشرطة... وتم تسفيري في اليوم التالي الى الحلة، بحجة ان ثمة اعترافات عليَّ هنا... ثم اضاف:

- ومع ان مايواجهني هنا قد يكون قاسياً جداً، فاني وجدت بعض العزاء في تسفيري الى الحلة بالذات...

لاني سالتقي بابن باران... باران خوشناو...

تردد فرهاد... في اظهار عواطفه، على حقيقتها، نحوه... اذ لم يستطع ان يتجاوز تلك الحالة من الشك وانعدام... الثقة، التي تزرعها الظروف السياسية القاسية التي تمر بها البلاد... ولا سيما ازاء قادم جديد مجهول يحمل معلومات كبيرة، ودقيقة، بسبب المندسين والساقطين......

ولعل جواد نفسه ادرك ذلك بصورة ما... ربما من صمته، بينما كان يتوقع اسئلة اخرى عن ابيه... عن الجماعة هناك... فاخذ يتبسط معه في الحديث لعله يكسب... ثقته خلال ثقة ابيه به...

- لك اخ... اسمه دلشاد...

- اجل

- احسست ان اباك لا يميل اليه كثيراً انت وحدك موضع ثقته وفخره... واعتماده عليك...

ثم سأله فجأة:

- كيف داليا. ؟

ودهش فرهاد:

- داليا؟. اتعرفها هي الاخرى؟

- هو حدثني عنها... وعن اخيها... وعن ابيها العظيم واستشهاده بذلك الشكل البطولي، ورسالته المقتضبة اليها... واشياء كثيرة... عن علاقتكما...

- يبدو انك تعرف عنها اكثر مما اعرف... فانا... اذن عليّ ان اسألك ماذا حل بها اين هي الآن؟

- لا ادري بالضبط... ابوك ايضاً لا يدري، بعض العوائل هاجرت الى منطقة «شيوه سور» اتخذت من الكهوف على طرفي الوادي مساكن

لها ، هرباً من الملاحقات. والقتل اليومي والقصف المستمر وقد تكون ضمن تلك العوائل...

- من يدري...؟ ربما... حتى اخوها... انقطعت اخباره عني...

- اخوها عزيز...

- اجل... اعتقل قبل اعتقالي بيوم واحد... ولا ادري الآن اي سجن يطبق عليه...

- سنلتقي كلنا ذات يوم. سيجمع الزمن شملنا... لابد ان يجمعنا... ونحن اقوى مما نحن الآن... واكثر عدداً.

- انت متعب... ساتركك تنام... هل تستطع ان تنام... وانت جالس...

- انام حتى وانا واقف ما دامت ثمة ضرورة...

وتعانقا بحرارة...... وفي اليوم نفسه أخذوه لم يدر الى اين... لم يلتق به. الا بعد سنين... سنين عديدة... تبدلت خلالها اشياء كثيرة...

***

وتحسس فرهاد الورقة الصغيرة بين اصابعه باعتزاز... وتعاظمت ثقته بجواد...

١١

- ما هذا؟... ألم تغسل فمك بعد الاكل.؟

سألته امه وهي تشم فاه:

- غسلت.

قالت بتأنيب:

- لا تكذب.

أصر الطفل:

- غسلت... واللّه غسلت.

فشمت داليا فاه ثانية، هي تعدّل ياقة قميصه الابيض الذي البسته لتوها وقالت:

- اي غسل هذا؟. رائحة اللبن تفوح من فمك.

وإذ ذاك كف ناسوّ عن اصراره، وسد فاه، بينما استمرت امه:

- والآن هيا... هيا... اغسل فاك... اغسله جيداً...

وراحت تدس ملابس الطفل التي نزعها في الحقيبة الجلدية السوداء التي انتفخت، بالرغم من حرصها الشديد على الابقاء عليها خفيفة.

اخذ ناسوّ ينزل درجات السلم بمرح وخفة، بشرواله الفضفاض وقميصه الابيض النظيف الذي بدا متهدلاً بعض الشئ، بعد خروجه من المستشفى، وحزامه القماشي المزركشي العريض، يتهادى.

نسى ناسوّ نصيحة امه بغسل فيه، او تكاسل عن تنفيذها حين ابصر «ناسوّس» قابعاً اسفل القفص بخمول تام، خيل اليه انه قد مات، ولكنه اذ اخذ يقترب منه باضطراب، انتصب الطائر واقفاً وهم ان يسير بضع خطوات، قبل أن يطلق جناحيه، على عادته. الا انه اصطدم بجدار القفص، فقبع في مكانه، ينظر الى ناسوّ بحذر وترقب ابتسم ناسوّ... وهو يقول:

- الآن... الآن يا ئاسوّس... لابد ان اجد لك شيئاً...

وهجم على الثلاجة، ينقب في داخلها بدقة، ابصر خلال شقوق الرف العلوى، كيساً من الورق الاسمر منتفخاً:

- اذن فانت الخيار... ها... تخفي نفسك هناك يا ملعون... صبراً... صبراً... انا اعرف كيف انزلك.

استند على اصابع رجليه، ورفع قامته القصيرة عالياً، ولكن يده... قصرت عن تناوله...

- اوه...

لم يطل به التفكير كثيراً، اذ سرعان ما خرج من فترة صمته القصيرة بفكرة... تحرك على التو، لتنفيذها.

- احسن شئ اصعد فوق الكرسي.

ولكنه اذ حرك الكرسي الخشبي، وجده ثقيلاً، فعجز عن حمله... لم ييأس اجال نظره في ارجاء المطبخ لعله يعثر على شئ اخف حملاً، ولما لم يعثر على بغيته عاد الى الكرسي ثانية، وراح يدفعه نحو الثلاجة دفعاً.

وبالرغم من الصوت العالي المزعج الذي اخذ يصدر من الكرسي وهو يسحله فوق بلاطات الارض، وبالرغم من يقينه ان امه ستنتبه الى فعلته، وسيكون حسابها معه قاسياً جداً. فانه لم يبال... لقد تعمق عنده احساس باللا مبالاة، ازاء كل ما يمكن ان يجري له:

«ئاسوّس جوعان... هل ادعه يموت.»

وظل يدفع الكرسي تارة... ويجره اخر... حتى جعله لصق الثلاجة تماماً... وحين حاول فتح باب الثلاجة مجدداً، وجد ان الكرسي يعيقه مما اضطره أن يدفع الكرسي مرة اخرى بعيداً عن الثلاجة، مسافة تكفي لحركة الباب. آنذاك فقد استطاع ان يفتح بابها... وتركه... مفتوحاً... فظل الهواء البارد المنبعث من جوف الثلاجة يغمره، ويدخل فتحات قميصه،

فاحس بلذة خاصة. سحب الكرسي نحو الثلاجة ثانية ولكن باب الثلاجة الا الى منتصف مجاله الحركي، بسبب الحائط المائل بجانبه، لم يدعه يقرب الكرسي كثيراً... لم يبال اذ تصور المسافة كافية، وانه قد بات بوسعه أن «ينوش» الرف الاعلى.

صعد الكرسي، مد جسمه داخل الثلاجة، الا ان يده قصرت عن الرف ثانية، مما جعله ان يحمل جسمه فوق اصابع قدميه مرة اخرى، ويقترب اكثر من حافة الكرسي، ولمست اطراف انامله حافة الرف الاعلى... استند عليه، بيده اليسرى... بينما راح يمد اليمنى نحو الكيس الورقي محاولاً الامساك به.

- تعال... تعال... اقول لك تعال... ئاسوّس جوعان... تعال حتى يأكلك...

ولكن الكيس ظل جامداً في مكانه، يرفض الانصياع لأوامره. مما اضطر ان يحاول هو المزيد من الاقتراب نحوه، الا... ان مسافة ما، بالرغم من كل محاولاته، ظلت قائمة، لا تتبدل،... مع كل ما يبذله من محاولات. تصور ان حركة سريعة من يده اليمنى... أشبه بقفزة القطة حين تخطف فأرة، يكون بوسعها تجاوز تلك المسافة العنيدة...

الا انه لم يكد، ينفذ فكرته، ويمد يده لخطف الكيس، حتى انزلقت قدمه من فوق الكرسي... وتراجع الكرسي الى الخلف... وسقط على الارض، محدثاً دوياً كبيراً... فامسك هو بكلتا يديه بالرف، ولكن الرف كان أضعف من ان يتحمل ثقل جسمه معه... تكوم على نفسه أسفل الثلاجة... وقد تناثرت فوق رأسه محتويات الرف.

أحس بألم ينبثق من جنبه الايسر، ومن رأسه الذي سقط الرف بمحتوياته فوقه. ولكنه لم يصرخ.. لم يستطع أن يصرخ، اذ لم تكد أصوات تساقط محتويات الثلاجة الصاخبة تهدأ في اذنيه حتى أمتلأتا باصوات أرجل اكثر صخباً، تطوى السلم... «ماما»

وقبل ان يبصرها، او تتهيأ له القدرة على النهوض بسبب الامه قال رداً. على الصوت الذي امتزج باصوات الارجل.

- ماذا حدث؟... ماذا فعلت يا ئاسوّ؟

- ماما... العبج... يموت.

وفعلاً كانت امه منتصبة امامه والشر يتطاير من عينيها:

- موتات... يا كلب... انظر ماذا فعلت... كنت ستقلب الثلاجة فوق رأسك.

واذ راها تهجم عليه وانطلق خياله يصور له بسرعة فائقة صنوف الضرب التي لابد ان توقعها عليه... اطلق ساقيه، غير مبال بكل الامه... التي احدثتها فيه السقطة.

حاولت داليا ان تمسك به ولكنها عجزت، فصرخت به:

- تعال... تعال... ابوك سيرجع الآن...

- لا... لا...

وركضت الام خلفه، وأخفقت مرة أخرى في الامساك به، ففلت الطفل كعصفور تطارده قطة جائعة... واذ اخفقت الام عن اللحاق به تذكرت محتويات الثلاجة، المتناثرة على الارض، فعادت تلمها وهي تدمدم:

- ما كان ينقصنا الا هذا؟

واضافت بألم:

- اي يوم أسود... هذا اليوم!

وفكرت... لو... لو عاد فرهاد... ولم يجده. ١

آه...

وارتعبت من الفكرة... يا الهي...

- لابد... ان اجده... اين ذهب الملعون؟

وانتصبت واقفة، تاركة بعض قطع اللحم والخيار والقرع والباذنجان...

مفروشة على الارض، واكتفت باغلاق باب الثلاجة، واندفعت خارجة بسرعة... الا ان ذيل ثوبها الطويل تعلق بالقفص، فاحتدت اكثر، ورفسته بعنف...

- كل ذلك بسببك... بسببك...

فتدحرج القفص المدور على نفسه وتقلب الطائر خلاله على اوضاع مختلفة، ولم يستقر الا حين استقر القفص على وضع ما.

اطلت برأسها من الباب الخارجي... لم تجد له اثراً... واخذت تفرك يديها بانفعال.

- اين ذهب... اي باب اطرق؟... لماذا هجمت عليه؟. ماذا اقول لفرهاد اذ يعود ولا يجده...؟ اللهم عونك...

وتساءلت في نفسها

- لعله في بيت حسين؟ لا أحسب انه يذهب بعيداً...

واذ همت ان تتوجه اليه. أبصرت ليلى ابنة جارهم جالسة على عتبة بابهم، تلعب، مع بعض الصبية:

- ليلى... ليلى...

- ها... خالة...

ومثلت الصبية أمامها مباشرة...

- عيني... ليلى... ئاسو... هرب من البيت...

وقاطعته:

- رأيته... يدخل بيت حسين...

- آتيني به... يا بنتي... آتيني به... يا عيني...

- اي خالة... الآن...

- امسكي به جيداً... لا تدعيه يفلت منك.

- حسناً خالة... حسناً.

١٢

توقفت سيارة بيضاء طويلة على مقربة من فرهاد، تتبعها سيارة جواد، المتهدمة، على حد تعبيره.

صاح جواد وهو ينزل من سيارته:

- الم اقل... ساخلق لك السيارة خلقاً...

قال فرهاد بامتنان بالغ:

- آه... أبو كاظم... انا عاجز عن الشكر...

لم يرتح أبو جواد:

- عيب... كاكا... عيب، تشكرني على ماذا... انسيت مقام الوالد عندي.

وتوجه اثره بالحديث الى السائق، الذي ظل خلف مقود سيارته يدخن، بلا مبالاة:

- أبو حيدر... دقيقة واحدة... ريثما ادخل السيارة الى الكراج.

وتحرك مباشرة بعد ذلك، نحو سيارته.

سأل فرهاد الرجل الذي دعاه جواد. بـ«ابو حيدر».

- لماذا يترك سيارته... في الكراج؟

- لا تتحمل سيارته طريق اربيل... وسيركب معنا.

- معنا؟...

وهرع إلى جواد. امسك بكلتا يديه وهو خلف المقود.

- ما الذي تفعله يا ابو كاظم؟

- كاكا... ارجوك... ابوك منح... حياتي معناها الحقيقي... لابد ان اراه... قبلما... قبل ان...

واغرورقت عيناه بالدموع:

- عزيزي... ابو كاظم... نحن نرحب، بالتأكيد، بوجودك معنا من اعماقنا... ولكن لا تنسَ ان ذلك يعطلك عن عملك اياماً عديدة... وذلك مالا يمكن ان اوافق عليه... أبدا... بالاضافة إلى أنه...

وقاطعه جواد بدهشة:

- كاكا... ماذا دهاك... كيف تتكلم؟

ارتبك فرهاد... ولكنه كان مصرا على موقفه...

- لا أدري كيف اتكلم... ويبدو اني فعلاً لا استطيع ان اوضح لك ما أريد ان أقول على النحو الذي ينبغي... ولكن لا يمكن ان اوافق على مجيئك معنا... ارجوك...

- ابو ئاسو...

وبرقت في ذهن فرهاد، الورقة التي اعدّها، والتي... اخفاها في جيبه حين بدأت كفه تعرق... وقد كاد ينساها.

قال له بصوت خافت:

- ثمة مهمة... يا ابو كاظم... اريد ان تؤديها لي...

واضاف:

- لايمكن أن يؤديها سواك.

- ماهي؟

قالها بلا بحماس... إذ بدا له ان فرهاد يختلقها لكي يشغله، ويجنبه مشاق الطريق تعطيل «رزقه» بضعة ايام...

ولكن لا... يا فرهاد... لا شئ يمنعني من حضور الساعات الاخيرة من حياة باران خوشناو... وإذا رفضت مجيئي معكم... فسآتي بسيارتي وليحدث ما يحدث...

وقبل ان يفضي اليه فرهاد بالمهمة، اخذ يتلفت ذات اليمين واليسار...

ثم قال بما يشبه الهمس:

- أنت تعرف... كريم... أليس كذلك...

- كريم؟... أي كريم؟.

وبدا له الاسم، مجردا على هذا النحو، مجهولاً عنده، ذكره بحالات سابقة... إذن... فثمة مهمة حقيقية يروم فرهاد... تكليفه بادائها...

وتلاشت على الفور شكوكه حين لمع ذهنه فجأة:

- أ... كريم... كريم البغدادي... أعرفه... ابو ئاسۆ... أعرفه...

فأحس فرهاد براحة:

- عال... عال... تذهب إليه في الهندية... تسأل عنه صاحب مقهى «السلام»... تقول ارسلني ابو ئاسۆ...

- حسنا... حسناً.

وكان جواد... يزداد احساسه بأهمية المهمة، تدريجياً... حتى انه خرج من سيارته مباشرة... واتكأ بظهره عليها... وراح يستمع إلى فرهاد باهتمام يمتزج بحب، يتصاعد... يتصاعد باستمرار.

خيل إليه... انه يستمع إلى باران نفسه؛ ملامح متقاربة عينان حادتان، ذكيتان، تنمان عن الجرأة... ثمة بروز في انف كل منهما... في منتصفه. يجعله يبدو كأنف كبش... ابيّ. شفتان رقيقتان يعلوهما شاربان دقيقان... شاربا أبيه... أكثر كثافة... وأكثر سواداً...

بينما شاربا الابن يبدوان بلون الكستناء... مع شعرات شقراء تتخللهما... كما أن شعر رأسه... تتناثر فيه الشعرات البيضاء أكثر من أبيه... الأبناء يهرمون قبل الآباء... يا له من زمن غريب... خاصة أن فرهاد أطول بعض الشئ... ونحيف... بالقياس إلى أبيه... الذي هو ربع... أكثر متانة ولكن ثمة شئ في طريقة حديث كل منهما... يكاد يكون

واحداً... هو تلك الثقة العالية بالنفس، التي تعبر عن نفسها في حركة الشفتين في الكلمات الخارجة منهما بوضوح. وفي ذلك الاهتمام والجدية في التعامل... وأخيراً... في ذلك الاصرار على الموقف الذي يريانه صائباً......... يالكما من رجلين... تسعد المرء معرفته بكما...

- وإذ تجد كريم تسلمه هذه الورقة.

وناوله الورقة بشكل يوحي انه مجرد مصافحة عادية... وهو يضيف:

- وإذا... اذا صادف... ولم تجده... في اسوأ الاحتمالات... أسرع جواد يقاطعه:

- احتفظ بها لحين اجده...

لم يوافق فرهاد.

- لا... لا... تمزقها...

فانتكس جواد... وسأل بقلق:

- أمزقها؟... لماذا؟...

اجاب فرهاد:

- أخشى... ان...

فقال جواد بثقة:

- لا... لا تخشى شيئاً... أعرف كيف أخفيها...

فرهاد مداعباً:

- واذا تعقبك واحد منهم... كما حدث في كركوك قبل اعوام...

- لا... لا... اطمئن... لم اعد صغيراً.

وإذ وجد فرهاد بالنسبة اليه، ما يزال صغيراً جداً اسرع يصحح:

- اقصد... طول العمل يكسب الانسان خبرة... استاذ.

- إذن تصرف... على النحو الذي تراه مناسباً... اذا اضطررت إلى

التخلص منها... افعل... فقط... عليك ان تخبره بسبب سفري المفاجئ...

- صار... ابو ئاسو... على العين والرأس...

- تسلم... يا ابو كاظم...

واحتضن احدهما الآخر بود...

- أرجوك أن تقبل الوالد بالنيابة عني... قبله كثيراً... قل هذا بالنيابة عن الحلاوي...

- بالتأكيد... ابو كاظم، بالتأكيد، اطمئن.

ثم توجه ابو كاظم بالحديث إلى السائق الآخر:

- ابو حيدر... عيوني... الاستاذ... اخونا... ها ؟...

ابتسم ابو حيدر، فكشف عن اسنان قوية، تلاعب الدخان، بلونها الطبيعي، دون ان يؤثر على بنيتها.

- اتعرفني بالاستاذ ؟... انه اكثر من اخ...

آنذاك تفرس فرهاد فيّ وجه السائق، لم يسبق له أن رآه... ولا تعرف عليه، ولكن ماذا يعني، فهو منذ حلّ في الحلة، أحس بان كل الناس، يعرفونه، ويعرفون زوجته... وحتى ئاسو... ويكنون لهم التقدير والاحترام... والحب أيضاً... ولعل تلك عاداتهم مع الغريب... ولكن أهي كذلك مع كل غريب... كائناً من كان؟

مالك وهذه المعادلات!! الرجل يعلن باعتزاز معرفته بك، واذا كنت لا تعرفه حتى الآن... فها هو امامك... حاول أن تعرفه... وصادقه... الا يكفيك انه احد اصدقاء جواد... وربما تكون العلاقة بينهما اعمق من مجرد صداقة سائق لسائق... او حتى... قريب لقريب... ابتسم له فرهاد شاكراً... واتخذ مقعده جنبه، بينما... انطلق جواد بسيارته، وهو يلوح له... وفرح مشوب باعتزاز يحركه... من الداخل.

بادره فرهاد...

- ابو حيدر... لا صغراً بك... لا اذكر اني تشرفت بمعرفتك.

ابتسم ابو حيدر... واكتفى ان قال:

- احياناً... اعمل على خط الهندية...

ابتسم فرهاد. اذن هنا المسألة...

- صاحب مقهى «السلام» الذي تجلس فيه، هو ابن خالي...

- آ...

ثم سأله ابو حيدر:

- استاذ اصحيح ان الطريق يغلق بعد الخامسة.

- طريق العودة فقط... ويسمح بدخول السيارات الى اربيل حتى السابعة واحياناً اكثر...

اجاب فرهاد قلقاً بسبب سؤاله ذاك... ترى ما قصده... ايمكن ان يرفض هو الآخر... ويقول له ببساطة:

- آسف... استاذ... آسف... لست صاروخاً.

وفعلاً لمح تجهماً في وجه ابي حيدر... مما اثار عنده... مخاوف عديدة... ولكي يتأكد منها سأله...

- وهل يهمك الامر؟

احس بانه سأله سؤالاً غبياً... ما كان ينبغي له ان يفعل... طبعاً يهمه... والا لماذا يسألك.

- طبعاً يهمني.

واستغرب من التواصل الفكري العفوي بينهما... حتى في الصياغة.

وسأله السائق:

- كم الساعة الآن...؟

والقى فرهاد نظرة على ساعته اليدوية:

- الحادية عشرة والربع...

هز ابو حيدر رأسه... مفكراً

- اذن سأبات الليلة في اربيل.

- تنام عندنا... ابو حيدر... بيتي بيتك.

- اشكرك جداً استاذ.

قال ذلك، وأخرج سيجارة يقدمها له... ثم اضاف مبتسماً:

- انا... بيتي هنا...

وضرب بضع ضربات على مقود سيارته، باعتزاز. بعد ان امسك بسيجارته بين شفتيه.

- ابداً... يا ابو حيدر... لا يمكن ان ادعك تنام في سيارتك.

ونفخ ابو حيدر من سيجارته دخاناً كثيفاً، سرعان ما لاشاه، تيار الهواء المتدفق. قبل ان يقول بصوت هادئ...

- ليست هي المرة الاولى... ولن تكون الاخيرة...

- حين يضطر المرء... ينام اينما كان... ولكن اذ يتوفر له... مكان النوم الطبيعي، لا ارى اي موجب...

وقاطعه ابو حيدر برفق... وأدب:

- أتدري ماذا افعل... اول ما أتنفّس هواء اربيل. واشم رائحة تراب اربيل.؟

سكت هنيهة. بانتظار أن يسأله فرهاد... واذ استبطأ سؤاله... اجاب هو... بصوت حالم:

- ابحث عن اصدقائي... واحداً... واحداً...

ووجد فرهاد نفسه يسأله:

- اذن فلك اصدقاء في اربيل...

- كثيرون...

ثم اضاف:

- وهم طيبون مثل وجهك.

وسعل سعلة خفيفة.

- ولكن يا ترى... هل اجدهم.؟

وراح في تفكير عميق...

- اربيل مدينة صغيرة... والكل يكاد يعرف الكل... على اية حال لن يضيع أحد... من يسأل يهتد...

هز ابو حيدر رأسه...

- صحيح... ما تقوله صحيح... ولكن بيني وبينهم ثلاثون سنة... ثلاثون سنة... والثلاثون سنة... تصنع العجائب... تقضي على ناس... وتخلق آخرين، تهدم... تبني... تخرب... تعمر... من يدري؟

وقاطعه فرهاد:

- عندك... ابو حيدر... عندك... لقد وصلنا...

ابتسم ابو حيدر وكشف مرة اخرى عن اسنانه الشاحبة القوية...

- اعرف... استاذ... اعرف... تفضل...

نزل فرهاد من السيارة مسرعاً... حتى انه لم يغلق بابها خلفه... مما حمل ابو حيدر ان يمدد جذعه فوق المقعد الاخر... ويسحب الباب... «مستعجل... حقه...»...

حين وجد فرهاد الباب مغلقاً مد يده الى جيوبه يبحث عن المفتاح، واذ لم يعثر عليه... اخذ يضرب الباب بجمع... يديه...

- داليا... داليا...

وجاء الجواب سريعاً...

- حالاً... فرهاد... حالاً.

واذ تواجه معها قال:

- هيا... هيا... داليا... اين ئاسۆ...؟

- هرب...

- اهذا وقت مناسب للمزاح...

- اي مزاح... يا فرهاد... لقد هرب... والله هرب.

- هرب؟. ما الذي تقولين؟. اين هرب؟. اين هو الآن...؟

- ها هي... ليلى...

وتركت داليا زوجها... وتوجهت نحو الصبية...

- ها... عيوني... ليلى...

- خالة... ئاسۆ عاصي... ببيت حسين... ما يقبل...

وانفجر فرهاد:

- بيت حسين... ماذا يفعل هناك. كيف تركته يذهب... اذهبي... اليه بنفسك... يا داليا...

- على مهلك... على مهلك... البيت على طريقنا... خذ الحقيبة...

- وئاسۆ... يا امرأة... ئاسۆ؟

- نأخذه من الطريق... ماذا دهاك؟

وسحبت خلفها الباب

- لقد تأخرنا يا داليا... تأخرنا كثيراً.

١٣

قال فرهاد، حين تحركت بهم السيارة، مؤنباً ابنه:

- كيف تشاكس امك يا ئاسوّ؟...

اجاب الطفل بصوت باك:

- هي... هي... ضربتني.

وانبرت الأم تدافع عن نفسها...

- حرام... اذا لمسته يدي.

وقال ئاسوّ، بعناد:

- لأني هربت...

ورفع عينيه الى ابيه، ولمح الأب بوضوح آثار دموع تيبست حولهما... وقال شاكياً:

- والله، بابا، لو لم اهرب... لقتلتني من الضرب.

فقال الأب محاولاً حسم الخصومة التي لم يجد أي مبرر لها حتى الآن:

- والآن كفى... يا ئاسوّ... كفى... يا ولدي... يجب أن تكون عاقلاً حتى تحبك امك... وأنا... والجميع...

أصر الطفل:

- أنا لم افعل شيئاً... هي... هي...

- لا... ابداً... مسكين... لم يفعل شيئاً... هل اقول لبابا... ماذا فعلت...

وصمت الطفل... والتصق بالزاوية اليمنى من السيارة حيث كان جالساً على المقعد الخلفي، مع امه يتطلع عبر الزجاجة... الى العالم المتبدل خارج السيارة... بسرعة خاطفة.

قال الأب:

- حتماً... أتيت واحداً من أعمالك الشيطانية... يا ئاسۆ...

- لقد أوشك ان يقلب الثلاجة على رأسه.

والتفت اليه ابوه الذي كان جالساً في المقعد الامامي جنب السائق، بحدة، مستفظعاً فعلته...

- الثلاجة؟... لم يبق شئ تلعب به الا الثلاجة.

وتطوع السائق الذي وجد نفسه، طيلة الوقت، شبه مهمل... بالمشاركة في الحديث.

- الولد العاقل... لا يلعب بالثلاجة.

قال ئاسۆ... مصححاً خطأ السائق في الحديث:

- لم اكن العب... كنت ابحث عن اكل لـ(ئاسۆس)...

وتساءل السائق بدهشة:

- ئاسۆس؟

وتصور الاسم لطفل... او طفلة، تركوه في البيت، لسبب ما، فتوجه بالسؤال الى فرهاد:

- من ئاسۆس هذا. ؟...

ابتسم فرهاد... اذ ادرك سبب دهشة السائق.

قال:

- ئاسۆس... طير... يا ابو حيدر... طير...

لم يقل اي طير هو... اذ شك ان يكون ابو حيدر يحمل اية فكرة عن «القبج».

زادت دهشة الرجل:

- طير...؟

وكرر:

- طير؟...

والتفت بغتة إلى ئاسو، حتى كاد يصعد رصيف الشارع بسبب ارتخاء قبضته على المقود.

- اتطعم الطير من الثلاجة...

اهمل ئاسو... سؤاله... إذ امتلأ ذهنه فجأة بالحالة التي ترك فيها ئاسوس...

- بابا... بقي ئاسوس... بلا أكل...

وأنتابت السائق روح مفاجئة من المرح:

- سنشتري له قوزي على تمن... ها ها ها... هـ

وأطلق ضحكة عالية... لم يلبث أن خنقها من منتصفها إذ أدرك أنه قد ارتكب حماقة ما... غير مناسبة تماماً... فقد تذكر ان جواد قد أخبره... ان والد الاستاذ... مريض جداً... وأن حالته سيئة للغاية... وقد يموت قبل أن يلحقوا به... فلحس آثار ضحكته، إذ لم يسمع لها أي صدى حتى عند الطفل، وندم على فعلته...

وظل لفترة يعاني من الأحساس بالندم...

«سهوت... سهوت... لم أكن أقصد سوءاً».

ولم يشأ فرهاد ان يكون قاسياً معه، فلم يعلق بشيء وحتى النظرة المتجهمة التي كانت قد تكونت في عينيه أبدلها بنظرة أخرى... وجهها إلى أبنه... نظرة تقريع وتأنيب، كأنه يعتبره المسؤول عن كل ماحدث... فنكس الطفل رأسه وقال كما لو كان يخاطب نفسه:

- سيموت... والله... يموت...

قالها بحرقة وألم شديدين... أثارا عطف الأب.

فقال له برقة:

- ألم أقل لك... اطعمه قطعة خيار...

ولم يكد الطفل يفتح فاه ويقول:

- أمي...

حتى هبت داليا في وجهه، تقاطعه، قبل ان تعرف ما الذي ينوي الطفل قوله:

- امك... امك... الا تقول لي ما الذي فعلته بك امك...

قالتها بغضب شديد... كما لو كانت تحاسب رجلاً كبيراً... نظر اليها فرهاد نظرة لوم:

- داليا...

ولم يزد...

كظمت داليا غضبها... وهمت ان تقول شيئاً ولكنها اندفعت، فجأة، إلى الامام، بعنف... على اثر ضغط السائق على الفرامل بشدة:

- كأنه يوم الحشر...

قالها السائق، وهو يرنو إلى الجموع التي تتدفق من بوابة السجن وتسيل نهراً بشرياً متلاطماً، على الشارع، وعلى الارصفة يحشر نفسه في عربات، أو سيارات... أو يواصل مجراه فوق الاسفلت الملتهب... وتحت سياط النار.

آمن فرهاد على قوله:

- لم أر زحمة كزحام هذا اليوم.

قالت داليا:

- كل مرة... نفس الزحام...

صدق السائق قولها:

- المسألة طبيعية جداً...

وتساءل فرهاد:

- طبيعية؟.

أجاب:

- طبعاً... إذا كانت الحكومة تضع نصف الشعب في السجن... قطعاً... يأتي النصف الآخر للمواجهة... وهكذا يلتئم نصفا الشعب، الشعب العراقي المسكين باجمعه، في سجن الحلة وفي يوم واحد.

ابتسم فرهاد... إعجاباً بحديثه.

- فعلاً... يبدو ان هذا السجن المشؤوم قد غدا مزار الجميع.

راحت داليا... تتحسس النجمة الذهبية المضلعة الصغيرة المتدلية بين نهديها... التي التصقت بلحمها بسبب العرق الغزير الذي راح يتصبب منها... بعد توقف السيارة.

وضعتها فوق ثوبها... وقالت:

- ان تاريخاً أسود، مليئاً بالكراهية والحقد... تخطه هذه القلعة الخرساء... في نفس كل فرد منا.

التفت نحوها السائق الذي كان قد اقلع كلياً عن محاولاته اللا مجدية في النفاذ بسيارته عبر الفراغات المؤقتة التي كانت تخلقها تحولات الأمواج البشرية بعد ان تأكد ان عمر ايّ منها لا يتجاوز ثانية واحدة ولا يتوسع الا بضعة اشبار.

- قطعاً زرتم... هذا السجن.

اجاب فرهاد مبتسماً:

- ألسنا من الشعب العراقي.؟

وأسرع السائق يقول معتذراً:

- حق... واللّه حق... انما... انما... قلت لعلكم من النصف الثاني... أقصد النصف الزائر.

قال فرهاد وهو يزفر من شدة الحر:

- لقد تبادلنا المواقع مراراً.

- اللّه اكبر!!

صرخ السائق:

- اني اتساءل جاداً... ترى هل ثمة من لم يدخل هذا السجن الأسود...

قالت داليا:

- يمكن استثناء الانتهازيين والمتلونين.

قال فرهاد:

- هؤلاء... غير واردين في حسابنا... هؤلاء أعداء الشعب.

ثم قال وهو يقدم سيجارة إلى «ابو حيدر».

- يا سيدي دخلت هذا السجن وعمري سبع سنوات.

وصرخ السائق ثانية، وانامله تهتز بعود الكبريت:

- اللّه... اكبر... سبع سنوات فقط...؟ هل يسجنون الاطفال هنا أيضاً؟

وأسرع فرهاد يصحح ما ألتبس على السائق:

- لم أكن سجيناً. كنت زائراً. كنت من النصف الثاني آنذاك.

- زائراً؟.

- ابي. كان مسجوناً. ثم نقلوه إلى سجن «نقرة السلمان».

واضافت داليا بألم:

- نقلوه... ليلقوا فيه هذه المرة بأبي.

- ابوك؟ انت الاخرى؟ اللّه اكبر.

بدا عليها كما لو انها تسترجع حلماً قديماً... طرياً رغم قدمه.

- ابقوا عليه ثلاث سنوات... ثم سلمونا... اياه جثة.

- جثة...!!

وارتبك السائق وانفعل كثيراً:

- الف... الف... رحمة على روحه.

ثم اضاف بحقد:

- وحوش... كلهم وحوش... لم يتركوا عائلة واحدة لم يحرقوا فؤادها... اللّه يساعد هذا الشعب المبتلى بهم...

- حتى الوحوش ارأف باعدائها منهم.

قالت داليا... وهي تجز على اسنانها...

كان فرهاد قد انساق وراء أفكاره حول العم الياس العظيم... وراح يفكر به وبتلك الصداقة الكبيرة التي ربطت بينه وبين أبيه، وبذلك الحب الذي كان يغمره به بشكل خاص...

بينما كانت داليا... تمسح بقدسية واجلال... على النجمة الذهبية ذات الاضلاع الخمسة... المتدلية... فوق ثوبها... وتتحسسها... بحنو...

همت أن تفتحها... وأن تتملى ربما للمرة المليون، تلك السطور الخالدة، الدائمة الاضاءة التي سطرها لها ابوها، وهو... يودع حياته الى الابد... ولكنها قاومت رغبتها حرصاً على الورقة الوردية التي تهرأت... من كثرة ما تلمستها... وسفحت فوقها الدموع دون ان تشعر وهي تقرؤها... مما حدا بفرهاد... أن يفاجئها في عيد زواجهما الأول... بهذه النجمة المضلعة... كي تحفظها فيها... فاكتفت بترديد كلماتها التي حفظتها عن ظهر قلب:

***

داليا... اي ابنتي الحبيبة.

عزيز... اي ابني الحبيب.

اكتب اليكما لانكما... علامة مستقبلنا المضئ... المضئ بالرغم من كل شئ...

اليوم وفي تمام الرابعة صباحاً ايقظوني... ليخبروني بانهم قد قرروا شنقي في الساعة السادسة...

«لا ترتعبا... ولا تسفحا الدموع... اسمعاني فقط.»

سألوني: أتريد شيئاً...؟ قلت أريد قلماً وورقة... حمراء... قالوا: حمراء... ايضاً؟ قلت: تلك رغبتي رغبة انسان يشنق ما ضركم لو حققتموها...

ابنتي: انت الآن صغيرة، وليس بوسعك ان تدركي لماذا يشنقون اباك... ولكنك إذ تكبرين ارجو ان تعرفي شيئاً واحداً فقط؛ ان أباك يموت في سبيل حرية وطنه...

وسعادة شعبه...

ولديّ الحبيبين: ضعا كل ثقتكما في عمكما «ابو فرهاد»...

سيكون في مقامي بالنسبة اليكما... بالضبط.

داليا:

لا تحزني من اجلي اكثر مما ينبغي، صحيح اني حزين وآسف لاشياء كثيرة لم يسعفني العمر أن احققها... ولكني لست نادماً على شئ، ولو تسنى لي ان اعود الى الحياة ثانية لسلكت نفس الطريق الذي قادني الى الشنق ليس، بالتأكيد، حباً بالشنق، ولكن حباً للطريق، واصراراً على التفاني في سبيله... والوصول به الى اهدافه الكبرى. وبالنسبة لكما، انت واخيك. فاختارا ما تريانه صائباً... اكون سعيداً جداً لو اخترتما طريق ابيكما. شرط ان يكون اختياركما عن قناعة واعية، كما هو الامر معي... بانه وحده، طريق الانسان.

وداعاً ولدي الحبيبين... كونا رؤمين بامكما... اني... اكتب لها ورقة

اخرى... لقد تعذبت هذه المرأة كثيراً.

معي، وبسببي. اني اتركها في رعايتكما...

وداعاً... وداعا

الياس

سجن الحلة: في ١٠/٤/١٩٥٥

***

وداعاً يا ابي... وداعاً يا ابي الحنون... ولتطمئن روحك العالية فولدك قد اختار طريقك... وابنتك قد وعت الآن لماذا شنقوك... قسماً بالحبل الذي التف حول عنقك... قسماً بكلماتك التي تحفر مكانها في قلبي... ان ابقى كما اردت...

والعم باران... اه... يا ابي... كان لنا الاب الحقيقي كما كان لك الاخ الحقيقي... لم يدعنا نشعر باليتم... جعلنا نحبك اكثر من وجودنا... ولكن... يا ابي... يا أبي... ها نحن نفجع بأبينا... وشهقت...

كانت عيناها قد اخضلتا بالدموع...

تفو!!

لتنصب عليك لعنات الارض والسماء... لقد قتلت ابي وامتصصت حيوية عمي... وكدت تقضي على شباب زوجي... والان من يدري كم من الارواح توشك ان تزهق... تحت سقفك... ايها الوحش الحجري... القائم على جماجم ولحوم... اماجد الناس...

التفت السائق نحو داليا...

كان يريد ان يقول لها شيئاً ولكنه اذ ابصر عينيها... المحمرتين ونظراتها الساهمة باتجاه السجن... اقلع عن فكرته... وحول حديثه الى فرهاد... او بالحرى الى نفسه فردد مع نفسه كلاماً آخر... غير الذي كان في ذهنه:

- الله اكبر... ما من بيت الا ولوعته هذه الجدران...

وداس على محرك السيارة، بعد ان استقرت عيناه القلقتان على فسحة خالية، بدت له كافية لاحتواء السيارة، واضاف بحقد:

- اما آن لها ان تتهدم؟

واطلق منبه سيارته بعصبية، اذ توقفت امامه فجأة عربة تقل مواطنين... الا ان العربة ظلت في وقفتها بانتظار صعود الركاب، بينما حرك الحوذي سوطه وهو يتحدث الى السائق بصوت عال... لم ينتبه اليه ابو حيدر... اذ انحرف الى اليمين وتفادى الاصطدام بها بصعوبة ومهارة بالغتين...

قال فرهاد:

- ستتهدم ذات يوم على رأس بناتها.

- بناتها؟

تساءل السابق بسخرية:

- اين هم بناتها...؟ من يدري من بناها؟ ربما بناها الانكليز وهم قد طردوا الان... او بناها الاقطاعيون... وهم قد اندثرت رؤوسهم تحت التراب... يا كاكا... لم يبق احد من بناتها ولكنها هي وحدها الباقية... كيف... كيف... لماذا بقيت حتى الان؟...

- بقيت لأن ثمة من يحميها... وحماتها الحاليون هم ورثة المندثرين... وستتهدم فوق رؤوس هؤلاء.

قالت داليا بضيق وانفعال شديدين:

- ولكن متى... متى ذلك هو السؤال.

واضافت بنفس حالتها الانفعالية...

- الى متى تظل تطحن أشرف من فينا.

قال السائق:

- كل يوم تبنى فيها اجنحة جديدة... ودهاليز جديدة... ويبتكر فيها أساليب موت جديدة... لستقبل أفواجاً جديدة تطحنهم... كما تقول ام ناسو... أو تلفظهم أشباه رجال.

همّ فرهاد أن يقول شيئاً ولكنه سكت حين واصل ابو حيدر حديثه بعصبية.

- قبل خمس وعشرين سنة كنت أحد نزلاء هذا السجن... علماً ان نزلاءه كانوا آنذاك على عدد اصابع اليدين... والبناية نفسها لم تكن بهذه السعة، والآن ها أنت ترى ماصارت اليه، إنها تتوسع... وتتوسع... كشلال ماء متدفق في ارض متربة. من يدري لعلها ستبتلع الحلة كلها ذات يوم.

- بل... انها...

وقاطعه ابو حيدر:

- استاذ نسيت أن أقول أني لم أسجن بسبب قضية سياسية وانما بسبب مسألة أخرى... تخجلني الآن...

وسكت...

ولم ير ايّ منهما، لا فرهاد ولا داليا، أن يسأله عن مسألة تخجله... ولكنه اضاف بقسوة:

- قتلت زوجتي...

ولم تستطع داليا تمالك اعصابها:

- زوجتك؟...

قال ابو حيدر بألم:

- او... لأقل... المرأة التي كان يمكن ان تكون زوجتي... لو لم اجدها ليلة الزفاف... غير عذراء...

وسكت السائق، تاه فرهاد في افكار شتي... بينما انسحبت داليا إلى الورا ء... واخذت تربت على رأس ناسۆ الذي كان قد اسند رأسه إلى جدار السيارة... ونام...

- ثم... ثم... بعد تشريح الجثة، تبين انها بريئة... ذلك يعني... اني كنت استحق السجن... بل وحتى الشنق... لاني كنت... مجرماً. ولكن ومع هذا كنت اتمزق داخل السجن... إذن فكيف تكون حال اناس من امثالكم... يضحون بانفسهم في سبيل سواهم... ربما بينهم نفس جلاديهم... يخنقون زهرة شبابهم بين هذه الجدران الصما ء... كيف تكون حالهم؟

- الناس من امثالنا أيضاً يتألمون، يترددون، وأحياناً حتى يجبنون ويخونون، الانسان، بعد كل شئ، يا ابو حيدر من لحم ودم... وعواطف وذكريات وتاريخ... ولكن قد يكون احساس البعض منا... بآلام السجون والاضطهاد اخف من الآخرين... لان الثقة والايمان بالمستقبل إذ يملأن القلب يشكلان المرهم لكثير من الجروح... والجسر لعبور الكثير من الآلام.

- لا ادري... لا ادري كاكا... ربما تكونون انتم أناساً من طينة أخرى... لا ادري... ولكن الذي ادريه... انني لو لم أبع كل ما املك وارش هذا من المسؤولين وذاك من ولاة الامر... واخرج من السجن لانتهى بي الأمر إلى واحد من اثنين... اما ان اخيس داخل السجن... «وأفطس»... أو يصيبني الجنون...

- صحيح... حياة السجون قاسية...

- قاسية؟... قاسية فقط... انها الموت، الموت الحقيقي... آه... تتوالى الليالي... والنهارات... والليالي والنهارات... لا تعرف ذلك الا من شروق الشمس وغروبها... وحين تكون السما ء تغلفها الغيوم... تكون كل ايامك... ليلاً متواصلاً... اشبه بكائن حي... مدفون في قبر.

١٤

سحبت داليا... بهدوء ناسوّ اليها... محاذرة ان توقظه، وضعت رأسه في حجرها بأناة... ورفق...

- نام... الطفل نام... يا عيني عليه...

فتحت حقيبتها اليدوية، إذ وجدت قطرات من العرق اخذت تتكورّ فوق جبينه... لألئ صغيرة تنكسر عليها اشعة الشمس، التقطت ورقة «كلينكس» وراحت تمسح عرقه...

قبلته من جبينه... ثم من وجنته... وأخيراً من فمه المكوّر ثم اخذت تربت على شعره وتمسده... وتتأمل وجهه الذي شحب كثيراً... واكتساه نحول شديد... بانت عظام وجنتيه عبره بوضوح... وغارت عيناه في حفرتين عميقتين... لم تملأهما حتى الجفنان المسدلان... اللذان تقطعت اهدابهما فبدا اشبه بقطعتي جلد اصفر، تماماً كما كان في المستشفى، فقط ينقصه ذلك الخرطوم المطاطي الطويل الذي كان مغروزاً في وريده، من جهة الاذن... وينتهي طرفه... الآخر بقنينة كبيرة معلقة... فوق رأسه، على الحائط.

***

قال لها الطبيب:

- لا بأس ان تنامي بين فترة وأخرى... فقط عليك ان تتأكدي من وضع الخرطوم...

- أتقصد انه يمكن يجري للخرطوم شئ؟

- ليس شيئاً خطيراً... يمكن ان يتحرك الطفل فيفلت الخرطوم من موضعه، وقد ينطوي فينسد المجرى...

- يا الهي...!!

- لا... لا... ترتعبي المسألة عادية جدا... بمجرد ان تعدلي وضع الخرطوم، يعتدل كل شئ...

قالت وكأنها تخاطب نفسها:

- إذا كان الأمر كذلك... فلن انام أبدا...

وسمعها الطبيب فقال:

- ذلك امر... فوق طاقة الانسان... لاسيما من كان

في مثل حالك... من الارهاق والتعب... بالاضافة إلى انه... ليس ثمة ضرورة.

- وهل من كان في مثل حالي يغمض له جفن؟

- سيدتي... النوم حاجة طبيعية في الانسان، وليست كل الحاجات تخضع للعواطف.

قال الطبيب ذلك، وهو يسحب الغطاء الابيض فوق ساقي الطفل النحيلتين اللتين برزتا كعودين يابسين، بعد ان انحسرت عنهما الدشداشة البيضاء...

اضاف الطبيب وهو يخرج:

- لا تنسي إذا صادف وتعرقل مجرى الماء المغذيّ لسبب او آخر... حركي الخرطوم قليلاً كما قلت لك أو أضغطي على الزر الذي بجانبك.

- حسناً... دكتور...

- تصبحين... على خير...

- مع السلامة.

وانسحب الطبيب بأدب جم، تاركاً اياها وحدها في غرفة صغيرة... لا تتجاوز بضعة امتار مربعة... مع ابنها الممدد إلى جانبها... بلا حراك... عدا صدره الذي يعلو ويهبط... وقطرات من العرق تتكورّ فوق جفنيه اولاً... ما تغفل عنها هنيهة... حتى تتجمع مجموعة منها... وإذ ذاك

تسيل على وجنتيه... فتسرع إلى مسحها.

الا ان ما اخذ يقلقها ويزعجها ان قطرات العرق لم تعد تقتصر على الجفنين... إذ أخذ جبينه يسيح عرقاً هو الآخر... وان قطرات عديدة منه تتجمع خصلة الشعر المتبقية في مقدمة رأسه... وإذ تسيل هذه القطرات، فانها تتخذ لها مجرى بأتجاه الجرح الذي في صدغ الطفل... حيث خرز رأس الخرطوم... مما يسبب للطفل آلاماً شديدة... يبدأ على اثرها برفس رجليه... والاسراع في التنفس.

«سيفلت الخرطوم»!

رأت ان افضل شئ تفعله، هو ان تضع منديلاً من مناديلها الورقية... تحت خصلة الشعر مباشرة...

عندئذ استسلم الطفل للرقاد... بينما ظلت هي يقظة، تلتقط قطرات العرق التي تنحرف قبل ان تلمس المنديل.

أحست بخدر يسري في مرفقها الايسر الذي كانت متكئة عليه... فأستعدلت... واتكأت هذه المرة على ظهرها... على مسند السرير... وإذ أحست بألم في ظهرها من حديد السرير الصلب... وضعت المخدة بينهما... وأحست بشئ من الراحة... وظلت ترقب الماء المنحدر من القنينة المعلقة... إلى جسم طفلها... صافياً نقياً، ولولا بعض الفقاعات التي كانت تتكون في القنينة... لانكرت ان تعتقد بان ثمة شيئاً... اي شئ في القنينة... عدا الهواء.

اوه... يا ئاسو... يا حبيبي... من اين جاءك هذا الداء... كنت دائماً تملأ البيت... صخباً وحياة... فكيف حدث ان همدت هذا الهمود.

لو جئنا به إلى بغداد في اليوم الأول من اصابته... لما بلغ هذه الدرجة من السوء.

احست بالخدر، لا يقتصر على المرفق... وانما يتجاوزه إلى ظهرها

ايضاً... والى فخذيها... وحين يبلغ رأسها... يستحيل الى نعاس يداعب جفنيها... فتطرده... حركات سريعة... ولكنه يعود بتحريكها ثانية... كذبابة لجوج تلاحق انساناً متعباً وقت القيلولة...

لو... لو كانت ثمة مجلة... كتاب... كان يمكن ان يعينها على المقاومة...

تذكرت الشاي...

تناولت «الترمس»...

قال لها فرهاد وهو يودعها...

«ما دامت الثلاجة قريبة منك... سأملأ الترمس بالشاي... قد تحتاجين اليه في الليل...»

حسناً فعلت يا فرهاد...

ملأت كوبها، بالشاي الساخن... واخذت ترتشفه... وعيناها لا تفارقان ناسو... والخرطوم... والماء الجارى عبره...

مجّت نفسها «الشاي»... الشاى على الجوع يهرس المعدة... اخذت قطعة بسكويت... قضمتها... ماعت مع دفقة الشاي في حلقها...

اعادت كوب الشاي الى موضعه... احست بشئ من النشاط يدب في جسمها... اجالت نظرها في الغرفة الصغيرة... لم تدر كم مر عليها من الوقت... كانت الساعة تقترب من الثالثة... صباحاً... ودقت ساعة المستشفى الثالثة... سمعت دقاتها... عدتها دقة... دقة... بعد قليل... سيحضر فرهاد... قليل؟ انها ثلاث ساعات اخرى... اذا سمحوا له بالدخول في السادسة... والا فستقفز الساعات الثلاث الى خمس... لو... لو... كان فرهاد معها... وابتسمت... لماذا لا يعدلون قوانين المستشفيات بحيث تسمح للزوج البقاء مع زوجها... ضحكت... انا مجنونة!!!.

تثاءبت... اوه... لا... لا... تثاءبت مرة اخرى... نهضت جالسة... تثاءبت

مجدداً... هزت رأسها... إذ... احست بثقل فيه... ثقل يطبق جفنها. ويميّل رقبتها... و... وو...

هبت مذعورة على ضربات ارجل ترفس بطنها... وانفاس تتقطع الى جانبها... فتحت عينها برعب كان ناسوّ يلهث... وهو مبلل بالماء... كما لو ان احداً قد صب فوقه برميلاً... من الماء.

القنينة... القنينة انفجرت.

ولكن القنينة كانت في موضعها... اه... اضطربت... صرخت:

- انجدوني... انجدوني... اليّ... اليّ... الطفل يموت ولدي يموت...

ولكن باب الغرفة كان مسدوداً، والكل نيام... وفي غمرة اضطرابها وانفعالها، نسيت نصيحة الطبيب بالضغط على الزر... فتحت الباب، واندفعت بجنون نحو غرفة الطبيب الخفر. الا انها لشدة ارتباكها طرقت باباً آخر...

وانفتح عن وجه ممرضة شعثاء الشعر... بادرتها باضطراب...

- الطفل... الطفل... الطفل...

- على مهلك... على مهلك... انا قادمة...

- الدكتور... الدكتور اريد الدكتور...

- دعينا نر الامر اولاً...

كانت تعاملها ببرودة جيلدية...

وإذ وقفتا على رأس ناسوّ:

- لا تخافي... لا تخافي... هذا يحدث غالباً...

فقط امسحي العرق عن الطفل...

وتناولت الممرضة... المنشفة وراحت تمسح بها وجهه ثم بللتها... ووضعتها فوق جبينه... وحركت الخرطوم بضع حركات.

- ضعي... فوق جبينه «كمادات»... ماء بارد... ولا تخافي...
وقبل ان تخرج... اضافت...
- ولا تنسى الانبوب... تحريكه بين فترة واخرى، ضروري.
- آ... آ كان مسدوداً؟
- بسبب حرارته تحرك الطفل... ونتيجة الحركة... انطوى الانبوب... فسبب ارتفاع الحرارة اكثر...
- اه... يا الهي...
- والآن بوسعك ان تنامي بعض الوقت... فقط لا تطيلي نومك...
- انام؟. بعد الذي حدث؟
واضافت بتصميم:
- سأذر الملح في عيوني...
وفعلاً لم تنم تلك الليلة... عدا تلك اللحظة المنحوسة التي لم تتجاوز النصف ساعة... اذ سمعت بعد خروج الممرضة الدقة الواحدة بعد الدقات الثلاث... حتى ان فرهاد الذي دخل الغرفة مع الخيط الاول من خيوط الفجر... ارتعب... إذ ابصر وجهاً شاحباً... انشق عن عينين محمرتين... تحيط بهما زرقة حادة... تبدوان خلالها ككوتي نار مطفأة... لتوها...
- اوه... داليا حبيبتي... لكم تعذبت!
ولم تقتصر... عذاباتها على تلك الليلة... وانما... امتدت الى ثلاث ليال اخرى... ثلاث ليال بنهاراتها الثلاثة...
اوه... حبيبي ئاسو...

***

- داليا... لو تمسحين العرق... من وجه الطفل...
قال فرهاد وهو يلتفت نحوهما...

- ها ؟...

- ئاسو... لقد غرق في العرق...

- الطفل يعرق بغزارة...

قالت ذلك... وراحت تمسح عرقه... ودموعها...

- ضعيف... الطفل ضعيف... اللّه يطول عمره...

قال ابو حيدر...

قال فرهاد :

- لم يكن كذلك قبل المرض... بسبب...

وقطع حديثه فجأة اذ مرقت بجانبهم سيارة سودا ء... ذكرته... بالسيارة التي اوصلته الى المرآب...

- ابو حيدر... كنت اريد ان اسألك عن سائق اوصلني الى الكراج... سيارته تشبه هذه السيارة...

وتأمل ابو حيدر السيارة التي تقدمتهم:

- شوفر... شوفر اربعة وخمسين...

- لا ادري بالضبط... فانا لا اهتم بموديلات السيارات، السائق هو الذي اثار اهتمامي...

ولم يكد فرهاد يمضي في حديثه عن السائق... حتى هتف... ابو حيدر:

- اوه... لقد عرفته... عرفته... ابو محمود... صحيح... سيارته شوفر... سودا ء... مسكين... هذا مسكين...

- ما حكايته ابو حيدر.

- قبل سنتين او اكثر... لا ادري بالضبط... اعتقلوا ابنه الوحيد. شاب صغير... لم يتجاوز الثامنة عشرة... لم يقاوم ألمسكين التعذيب كثيراً... فمات...

- مات؟

وكانت دهشة السائق لدهشته اكبر...

- اغريب ان يموت انسان من التعذيب؟

- لا... لا ابدأ وانما... هو... هو... ما يزال يعتقد انه حي وانه...

- سيعود اليه في تابوت... مسكين كان انذاك في الكويت ولم يخبره احد... بحقيقة ما حدث...

- اوه... ما افظع ذلك...

قالتها داليا.

- ولهذا تراه يركض وراء كل جنازة يراها... مسكين...

واشار الى رأسه.

اشارة ذات معنى

- لقد أختل عقله...

١٥

قالت داليا:

- فرهاد نسيت اخبرك... عزيز خابر...

- عزيز؟...

ومال اليها بكل جسمه:

- ماذا قال...؟

- لا شئ... فقط ليخبرنا... بحال الوالد... يبدو ان دلشاد لم يقل له بانه قد اتصل بنا.

- طبعاً... تدرين مقدار توتر العلاقة بينهما.

- دلشاد... يوتر علاقاته مع كل الناس...

قالت ذلك، مضمنة قولها دفاعاً غير مباشر عن شقيقها...

آمن فرهاد على قولها:

- صحيح... انه معقد بعض الشئ...

ندمت على تهجمها الخفي على اخيه:

- آسفة... ليس قصدي الحط من أخيك... وانما...

- اخي...؟

قاطعها فرهاد ضاحكاً:

- كلاهما اخي... عزيز ودلشاد... وكلاهما اخوك... واذا كان احدهما افضل من الآخر، فينبغي ان نقره... وذلك كل ما في الامر... امتلأت داليا فخراً واعتزازاً بزوجها... وقلبه الكبير... قالت في سرها:

انت انسان نادر... يا حبيبي... انسان من نوع... خاص...

بينما كانت نفس الفكرة تدور في ذهن فرهاد فافصح عنها بصراحة:

- عزيز... انسان... رائع... رائع حقاً.

آنذاك قالت داليا:

- وانت كذلك... ولو لم تكونا كذلك... لما احب احدكما الآخر الى هذا الحد... يخيل اليّ ان ابويكما يحيان فيكما...

- بشكل اروع...

ابتسما...

ثم اضاف فرهاد:

- عزيز... شئ آخر... آخر تماماً... الفضل الاكبر له حتى... في حياتنا الحالية...

***

في حديقة الكلية حيث كانا يدرسان معاً، كانا جالسين على احدى المصاطب الخشبية المبثوثة هنا وهناك.

كان فرهاد... يرمق بشغف... وشبق... فتاة سمراء ناهدة الصدر، مكتنزة الشفتين... رائعة الردفين... جر عزيز اذنه:

- هيه... انتبه... انت تفترسها أمامي...

اجاب بلا حرج:

- جميلة يا عزيز... لذيذة يا عزيز... هل رأيت شفتين اشهى من شفتيها... هل رأيت ردفين أروع من ردفيها... هل رأيت صدراً... اعظم من صدرها... هي... هي التي اسميها صاحبة الصدر الأعظم في كل الكلية... بل كل الجامعة...

- لا...؟

قاطعه عزيز... مقلداً انفعاله:

- بل في كل العراق... لا بل في كل الدنيا...

- كفى... كفى... ان حبيبتك اروع منها... بكثير.

تسا ءل بدهشة:

- حبيبتي...؟ من هي حبيبتي؟.

اجاب عزيز ببساطة متناهية... كأنه يتحدث عن فتاة

غريبة لا عن اخته:

- داليا... طبعاً... ومن سواها؟.

ثم اضاف متصنعاً التهديد...

- وهل لك سواها... اخشى ان تكون لك فعلاً...

سواها...؟

انتفض فرهاد... لا... لان واحداً من أكثر الامور خصوصية قد عرفه عزيز... بل لانه ربما يكون قد عرفه... بصورة مشوهة... بغير وضعه الحقيقي، على الاقل... هو كان يخبره علي اية حال... ولكن كان يريد ان يقرر معها... هي، لا معه هو، الزمن المناسب...

فقال له برصانة... وجدية:

- اسمع عزيز... هذه المسألة بحاجة إلى توضيح...

- توضيح... طيط... توضيح بالنسبة إلى من...؟ انا أعرف كل شئ.

احتد فرهاد:

- لتعرف... لا يهمني... كنت ستعرفه على اية حال.

فاننا لانرتكب عملاً نخفيه عنك... او نخجل منه...

المسألة... بكل وضوح...

ضحك عزيز... حتى استلقى على ظهره...

- انت احمق حقاً...

- عزيز اسمعني ارجوك...

- ماذا دهاك يا فرهاد... هل انت معتوه؟... انتما تحبان بعضكما...

وهذا اروع ما يمكن ان تفعلاه.

- ولكن... ولكن...

- ملعون... اتحسبني لا ادري... انا عزيز... هل نسيت من اكون... انا لا يخفى عليَّ شئ... لا في الارض ولا...

- اي... أنت اله... ولكن متقاعد...

- ولكني... اول من يبارك لكما هذا الحب...

قالها بجدية وصدق... امتص الكثير من شكوكه... ومع هذا تساءل بأمل:

- صحيح عزيز؟... صحيح؟... هل انت جاد؟...

- ولماذا اكون سواه؟... انا جاد كما لم اكن في اي يوم...

- عزيز... حبيبي...

وقاطعه:

- حبيبي انت تحبها وهي تحبك... ما دامت هي راضية وانت راض...

وضحكا طويلاً.

الا ان فرهاد... صعب عليه كثيراً تصديق الامر بسهوله...

ما كان بوسعه، آنذاك، ان يرتفع بمداركه العقلية إلى مستوى تصديق المسألة بسبب تلك التعقيدات التي ترافق زيجات من هذا النوع... انها واحدة من تلك المسائل التي تكاتفت عهود طويلة... طويلة جداً، من التخلف واللاانسانية على جعل تحقيقها أمراً مستحيلاً... وكان نضال المحبين والعشاق، ضدها يرتفع إلى مستوى الملاحم التاريخية الكبرى... المجهولة... مليئة بالانسلاخات العائلية... مليئة بالموت احياناً كثيرة... والذبول والفناء... وما اندر ما تحققت واحدة منها... بلا آلام العائلتين... وما اقل ما ارتفع بناء واحدة منها على غير الاشلاء... أو الخصومات

الخالدة... وكان هو نفسه، متصوراً لحبهما... مصيراً من ذلك النوع... فلذا كان يخطط لزواجهما، بشكل رومانسي طاغ.. كأن يخطفها... ويتزوج... على الرغم من كل شئ... ومستهيناً بكل ما يضطر إلى التضحية به من علاقات وصداقات...

***

«تفو: لقد كنت غاية في الانانية...»

***

اما... اما... وان عزيز... عزيز اخوها... يصور المسألة بهذه الصورة. بهذه البساطة و...

لا... لابد ان يكون هذا الملعون مازحاً:

- عزيز: هل انت جاد ؟. اسألك مرة أخرى.

قهقه عزيز... ثانية:

- تسألني: الاولى بك ان تجيب على سؤالي اولاً...

- سؤالك... متى سألتني؟

- تضيف إلى جريمتك جريمة أخرى... إذ تنكر اني سألتك...

- اوه... عزيز... بالله كف عن هذه السفسطة... وقل ماذا سألتني؟

واعتدل عزيز في جلسته واتخذ طابع الجد... وقال برصانة:

- يا حبيبي... سؤالي الذي تنكره... وتتهرب من الاجابة عليه... كان الآتي:

وسكت... وطال سكوته...

- ها؟

الا انه ظل ساكتاً...

- ما اقبحك يا عزيز... قل وخلصني...

- سألتك... هل... أنت... يا... سيد... فرهاد...

مجنون...؟

واطلق ضحكة عالية.

وكبالون ممتلئ بالهواء ثقبه احدهم فجأة، انتكس فرهاد...

واحتد:

- اوه... عزيز... متى تكون جاداً...

- انا جاد... يا أخي... جاد جداً...

- بل فاشستي قذر... تعرف كيف تعذب الانسان...

وظل يضحك...

- انا فاشستي...؟

- اجل انت... واني اتعجب كيف غفل عنك هتلر ولم يدخلك في الجستابو؟

- لانه مات بعد ميلادي بعشر سنوات... ها ها ها...

- اسمع عزيز... انا لا تبدو لي المسألة بالبساطة التي تتصورها...

- لماذا...؟

- لماذا... لانها...

وقاطعه عزيز:

- لانها مسيحية وانت مسلم... أليس كذلك؟ أليس ذلك ما تود ان تقوله؟

ولأول مرة أخذ يتكلم بجدية حقيقية.

- اهذا مستوى تفكيرك... الا تخجل من نفسك؟... ومن الافكار التقدمية التي تحملها... يا فرهاد...؟

- عزيز!!

- إذا لم يكن بوسعك أن تتجاوز هذه التوافه... فأسمح لي ان أقول لك بصراحة، أني اشك في تقدميتك... قبلما اشك في حبك واخلاصك لها.

وانفعل فرهاد كثيراً:

- بل اتجاوز حتى ربها... ولكن المسألة لا تتوقف عليٌ وحدي... ماذا عن الاهل؟.

- الاهل...؟

وعاد يضحك مجدداً:

- اقصد... اقصد... أمك... مثلاً...

- هي امرأة عجوز... ولابد ان ترضخ للامر الواقع ثم...

ثم... إلى متى نظل ندع ناساً ذوي افكار في دور الانقراض... يخططون لنا حياتنا.

- اوه... عـــزيز... انت انســـان رائع... اروع انســـان... ودون ان يكمل عبارته... راح يغمره بالقبل.

- هيه... انتبه... صاحبة الصدر الاعظم ترنو اليك.

- الى الجحيم... من يحب داليا... يتجاوز نساء الارض.

***

ندّت من داليا آهة قوية:

- آه... يا الهي...

- ماذا هناك؟...

التفت نحوها فرهاد فجأة! كانت دافنة رأسها في حقيبتها اليدوية السوداء.

- المفتاح... نسيته...

- المفتاح؟... أى مفتاح؟...

- مفتاح الباب الخارجي... نسيته فوق المنضدة.
وبحث فرهاد في جيبه... ولكنه عاد خائباً.
- انا أيضاً... نسيت مفتاحي.
- كل ذلك بسبب ئاسو... لم يدعنا نتذكر شيئاً.
قال ابو حيدر بطيبة بالغة:
- هل ارجع الى الحلة؟...
- الحلة؟... لقد اصبحنا على مشارف بغداد...
- وعيونك... لا يهمني... اطير بكم طيرانا...
قالت داليا بأمتنان بالغ:
- وما الفائدة... يا اخي... لقد سحبت الباب حين خرجت.
قال فرهاد:
- لا تشغلي بالك... حين نرجع نفكر بطريقة ما.
قالت هي بحزن:
- اية طريقة... ليس امامنا سوى كسر الباب.
- ليكن...
وتساءل فرهاد في سره... ترى متى نرجع...؟ من يدري ما الذي ينتظرنا هناك؟،... آه... فقط لو نصل قبل الكارثة...
- اخونا... ابو حيدر... لو... لو... اقصد لو كان بالامكان ان تسرع قليلاً...
- اسرع؟... اتدري اني اسير بسرعة مئة وعشرين...
- ادري... ادري... بارك الله فيك... قلت لعله... يمكن... ان... ان...
- ان اسرع اكثر... حاضر... فقد دعنا... نتخلص من زحمة بغداد...

١٦

- كلاب... يسابقون الموت.

قالها ابو حيدر بغضب، واتبعها بمسبة، وهو يتفادى ببراعة سيارة صغيرة مرقت من جانبه بسرعة طائشة.

امسكت داليا بكلتا يديها، متكأ للمعقد الامامي، بقوة، كي تمنع نفسها من السقوط... بينما، اندفع ئاسوّ، الممدد في حضنها الى الامام، وفتح عينيه... اجالها هنيهة قصيرة... ثم عاد فغفا مرة اخرى.

- هل استيقظ ئاسوّ؟

- لا... فقط فتح عينيه... ثم يبدو انه قد عاد الى النوم.

وتأملت داليا عيني الطفل، بدتا كما لو انهما تتحركان بقلق، ولا تستقران... لاحظت ذلك عبر فتحتي الجفنين غير المطبقتين تماماً.

قالت:

- غريب... نائم وعيناه تتحركان...

- إذن... فهو يحلم...

ومال اليهما فرهاد... يرمق ابنه... ولكن عينيه كانتا بأتجاه امه فلم يبصرهما...

- يحلم؟

تساءلت الأم وهي ما تزال تتأمل عيني الطفل المتحركتين، واضافت:

- لعله يحلم بـ«ئاسوّس»!

- ربما...

ثم اكد قوله:

- وماذا يملك سواه...

- استاذ... معذرة...

قال ابو حيدر... وهو يقدم سيجارة الى فرهاد:

- حتى الآن لم ادر اي نوع من الطيور هو... هذا الـ«ناسوّس»!

فترت شفتا داليا عن ابتسامة حية، بينما ضحك فرهاد... ضحكة خافتة...

قالت داليا:

- هذا نوع من الطيور... لا اعتقد انكم اهل الجنوب تعرفونه يا ابو حيدر...

- يبدو الامر كذلك... ام ناسق... فهذا الاسم لم اسمع به قط.

قال فرهاد:

- هذا الاسم، في الواقع، ليس اسماً لايّ نوع من الطيور... انما هو اسم لجبل... ارتبط بذكريات أليمة ولكن عزيزة على... قلب الوالد... فاطلق اسمه... على هذا الطائر... الذي اهداه لـ(ئاسوّ).

- ولكن الطائر... الطائر... ماهو؟

تساءل ابو حيدر بفراغ صبر:

- هو... الحجل... يا ابو حيدر... الحجل...

وردد الاسم عدة مرات:

- الحج؟. الحجل...؟

قالت داليا:

- ألم أقل انتم لا تعرفونه؟

هزّ ابو حيدر رأسه... وهو ما يزال يردد ويعصر ذهنه لعله يتذكر طائراً بهذا الاسم.

- الحجل... الحجل...؟ حسناً كيف هو...؟ اقصد كيف شكله؟ حجمه؟ اين يعيش...؟

- هو طائر... مكور تقريباً... منقاره أحمر... رجلاه حمراوان يعيش عادة في المناطق الجبلية... ولونه...

قاطعه ابو حيدر:

- عندك... عندك... لقد عرفته... قسماً بالله لقد عرفته... شاهدت منه الكثير في أربيل، في الدكاكين... في المقاهي... ماذا يدعونه له اسم اخر... ليس الحجل...

- القبج!

- صدقت... بالضبط... القبج... ولكنك قلت الحجل يا أستاذ واربكتني...

ثم وجه الحديث ثانية الى داليا:

- لقد شاهدت المئات منه في أربيل، ولكن الاستاذ... يسلمه الله... يتكلم معي... بالنحوي...

وضحكوا...

قال فرهاد:

- ابو حيدر... عاش فترة من حياته في اربيل...

- صحيح...؟ متى كان ذلك يا ابو حيدر...؟

- قبل ان تولدي انت او زوجك... و...

وضحك...

- قبل اكثر من ثلاثين سنة... انهيت فترة الخدمة العسكرية في اربيل وقد كانت المقاهي تعج... آنذاك بالقبج... بعض الناس كانوا يتراهنون على المعارك التي تنشب بينها... مثلما يفعل اهل بغداد... مع الديكة...

أمن... فرهاد على قوله:

- صحيح... صحيح...

- كانت اياماً جميلة بالرغم من أتعابها... اربيل مدينة ضيقة ومتسخة ولكن أهلها غاية في الطيبة...

- والقبج... اكنت تراهن على معاركه...؟

- انا... لا...؟... كنت اكتفي بالنظر فقط... انه طائر جميل ولاسيما عندما يمشي... ولكن غناءه موحش... احياناً.

- ابي يطرب لسماعه كثيراً... يقول هذا صوت الجبل... صوت جبالنا الشماء.

- ولهذا اطلق عليه اسم احد الجبال... اسم جميل... هذا الاسم ناسوّس... «وكرر مع نفسه...» ناسوّس... ياله من اسم... بينما واصل فرهاد حديثه:

- كثيراً ما كان يصحبني معه... حين كانا يخرجان لصيده، هو ووالد داليا... ولكنه كان مايكاد يسمع غناءه من بعيد، حتى يتوقف... يجمد ولا يتقدم خطوة واحدة... «دعه ألياس دعه... بالله عليك... دعه... يكمل غناءه» ولكن الذي كان يحدث، في الغالب، انه يطير... بعد غنائه مباشرة... فيلومه ابو داليا ولكنه كان يجيب: «دعه... انه... يتعقب صوت غناءه بين تلافيف الهواء...» والدي يحب القبج كثيراً...

- هو طائر جميل حقاً... ولا استغرب ان يكون المحروس قد تعلق به إلى هذا الحد.

- وايّ تعلق... لقد ملأ عليه حياته كلها...

قالت داليا بأحساس عميق بالندم:

- لقد قسوت على الطفل... من يدري ماذا يحدث لطائره لحين عودتنا؟...

همَّ ابو حيدر... ان يقول شيئاً... ولكن فرهاد صرخ:

- اغنام... ابو حيدر... اغنام!

وداس ابو حيدر... بسرعة وبرباطة جأش على الفرامل... وبعد صراخ قصير حاد... توقفت السيارة، وانحرفت عن الشارع... الى الارض المتربة... و... طراب...

اندفعت داليا وناسوّ... الى الامام بعنف.، بينما امسك فرهاد بالمقبض

الجلدي المتدلي من سقف السيارة بكلتا يديه، في الوقت الذي احس أبو حيدر بألم في صدره جراء اصطدامه بالمقود... وهو يهتف...

- يا ساتر... استر...

فتح ئاسو... عينيه... واستدار اليهما فرهاد... عادت داليا الى موضعها... بينما ظل ابو حيدر مرتمياً على المقود...

- ابو حيدر... ابو حيدر...

ناداه فرهاد بقلق وهو يحركه:

رفع الرجل رأسه... بصعوبة...

- لا... لاشئ... لاشئ... الله ستر...

تفرقت الاغنام، التي كانت تعبر الشارع، فبعضها عبر... بينما تراجع البعض الآخر... واطلق الراعي الصغير... الذي كان يتقدم القطيع ساقيه للريح... إذ أبصر السيارة قد اقتربت من القطيع كثيراً...

وحين ابصره ابو حيدر...

- تفو... نغل... ابن نغل...

وهمَّ ان ينزل... فأمسك به فرهاد...

- لا جدوى... يا ابو حيدر... لن تلحق به على اية حال...

- يا كلب... يا ابن الكلب... أما تنتظر حتى يفرغ الشارع!!

كان ئاسو... قد استيقظ وظل لفترة... يتأمل الوجوه... وإذ تعرف عليها... وتذكر كل شئ... قال... بدلاً من الاجابة على سؤال امه.

- بابا... ما تأذيت؟...

- مـ... ا...ء... ماء... ماما...

وإذ ذاك حرك ابو حيدر السيارة ثانية... وقلبه يخفق بشدة:

- لا... قانون... لا نظام... حين تنصب الكوارث على الواحد منا يتعلق بذيل الأقدار...

وقال فرهاد :

- ينبغي ان لا تلقي بكل اللوم على الراعي... نحن أيضاً استغرقنا الحديث وسهونا عن الطريق...

- صحيح... ولكن بالنسبة لعبور الحيوانات والدواب... في شارع مزدحم كهذا... اما ينبغي ان يحددوا لها... مكانات خاصة... للعبور... اشارات، تمنع الاصطدام بها... يا اللّه... كل جسمي يرتجف... انا اسوق منذ عشرين سنة... لم يصادف والحمدللّه... ان سحقت نملة... هذه اجازتي خالية من اي حادث...

- مـ... ا... ء... ماما... مـ... ا... ء...

وإذ سمع فرهاد صوت ئاسۆ... ثانية... التفت...

- داليا... الطفل عطشان...

وبدت داليا... كأنها تستيقظ من كابوس...

- ها...؟...

- ئاسۆ... عطشان...

قال ابو حيدر:

- ثمة مقهى قريب... لم يعد الا القليل... لكي نبلغه...

قالت داليا:

- معي... «ترمس»... فقط لو تخفف قليلاً...

واضافت وهي تصب الماء:

- اوه... يا الهي... لقد كتبت لنا حياة جديدة...

قالت ذلك وهي تصب بقايا الكأس في كفها التي كورتها... وتغسل بها وجه ئاسۆ... الذي احمر... واخذ يلمع تحت اشعة الشمس... بينما اخرج ابو حيدر من علبة سيجائره... سيجارة واحدة... وراح يدخن بقلق وشراهة...

١٧

- ئاسۆ... ابني... مرتاح...؟

سأل فرهاد الطفل إذ أحس بأن فترة صمته قد طالت... ولكن الطفل لم يجب... مما جعله يعيد عليه السؤال:

- ئاسۆ... لماذا لا تتكلم؟...

أيضاً، لم يفتح الطفل فاه...

- ئاسۆ ماذا بك؟... ابوك يتكلم معك... لماذا لاترد عليه؟...

- زعلان... بابا... ئاسۆ... زعلان...؟

سأله، هذه المرة، ابو حيدر، الذي تعزز عنده الاحساس عبر الحديث، والطريق الطويل، والاحداث المشتركة، بانه قد بات واحداً منهم... أبوها... أبوه... «يا لها من اسرة حبابة».

كان يرقب ئاسۆ... في المرآة الامامية... وقد لحظه يرمق البلبل البلاستيك الملون... الواقف على المحيط الداخلي... لحلقة معدنية... اسفل المرأة بالضبط...

همس في اذن فرهاد:

- ئاسۆ... يرمق البلبل... ولهذا فهو ساكت...

ثم وجه الحديث الى ئاسۆ... مرة اخرى:

- ئاسۆ... ابني... اتريد هذا البلبل؟

هزّ ئاسۆ كتفيه بالرفض.

ومع ان ابو حيدر لحظه بوضوح... تجاهل علامة كتفيه وقال:

- ولكن عليك ان تحافظ عليه جيداً... والا طار منك...

آنذاك لم يتحمل ئاسۆ هذه الاستهانة بقدراته العقلية:

- هذا بلبل من كذب... كيف يطير؟...

ضحك ابو حيدر بطلاقة:

- ذكي. ما شاء اللّه... ذكي...

ولكن ناسۆ... وبلا مقدمات راح وجهه ينكمش، وانفاسه تصعد وتهبط... و... وفجأة اخذ يجهش بالبكاء.

- ناسۆ...؟ ابني ماذا بك...؟ ماذا جرى لك؟...

- لعله يريد البلبل.

قال ابو حيدر... ومدّ يده الى البلبل يروم انتزاعه... من موضعه... فامسك فرهاد بيده...

- لا... لا... أبداً... المسألة ليست مسألة البلبل وحياتك...

ثم توجه الى ابنه:

- تعال... عندي... ناسۆ... تعال عند بابا.

ولكن الطفل ظل منكفئاً على مسند المقعد الامامي... وكل جسمه يختض...

احاطته امه... بذراعيها وراحت تقبله:

- ماذا هناك... يا ناسۆ... ماذا بك... يا ولدي؟...

هزُّ ابو حيدر رأسه:

- لا حول ولا قوة... بكاؤه يقطع القلب.

احاط فرهاد وجه الطفل النحيل بكفيه:

- ناسۆ... أيوجعك شئ.

وسبقت داليا ابنها في الجواب... اه... ارادت ان تساعده في الاجابة:

- بطنك...؟ ابني... بطنك...؟

وبالرغم من ان داليا سألته بصوت هامس،. فان اذني ابي حيدر...

التقطتا السؤال:

- تبول... بابا... تبول؟...

وخفف ابو حيدر من سرعته، بانتظار قرار ناسوّ... بينما امتدت يدا داليا تحيطان ببطنه. وهي تكرر السؤال نفسه:

- ها بابا... تبول؟...

ولكن الطفل ظل ملتصقاً بمسند المقعد الامامي:

- لا... لا...

فقال فرهاد بفراغ صبر...

- اذن... ماذا هناك...؟...

قالها بلهجة حادة مما حمل ابو حيدر ان يقول له بأبوة...

- على مهلك مع الطفل... على مهلك... يا ابو ناسوّ...

وشعر ابو حيدر بفرح وامتنان... اذ لاحظ على لهجة فرهاد انها لانت فعلاً وهو يسأله برقة:

- قل... بابا... لا تستحِ... اذ كنت تريد شيئاً قله،.

ولكن الطفل اكتفى بالبكاء.

- لا تبك... بابا... ناسوّ... فقط لا تبك...

قالت داليا، وهي تمسح له دموعه...

- جوعان... ناسوّ... ابني... جوعان؟...

سأله ابو حيدر برقة بالغة، دون ان يلتفت نحوه...

وتردد الطفل قبل ان يقول بصوت تخنقه الدموع.

- لا... العبج... جوعان... بابا العبج...

- القبج...؟...

ولاحظ ابو حيدر ان الحدة قد عادت الى لهجة الاب... الا انه لم يقل شيئاً...

بينما استاءت داليا كثيراً...

- يلف ويدور... ويرجع الى «العبج»

ولفظت القاف بعين مضخمة... مقلدة إياه... بضجر.

بينما قال الاب:

- اشتري لك... زوجاً من العبج... حين نصل اربيل...

- لا... لا... اريد «ئاسوّس»... اريد ئاسوّس...

احتدت داليا:

- الا... ئاسوّس... كأن الله لم يخلق سواه من الطيور... أي عناد هذا...

قال ابو حيدر... بحسن نية... وطيبة:

- بسيطة... نسميها «ئاسوّس» أيضاً...

ولكن الطفل كان يعاني من مشكلة اخرى:

- ئاسوّس... يموت... يموت...

قالها بصوت مثقل بالالم.

- ابوك يشتري لك غيره... الم يقل لك...؟

- لا... لا اريده... ان يموت... لا اريد ان يموت.

ولم يعد بوسع الام ان تتحمل اكثر، فانفجرت فيه:

- والآن كفى يا ئاسوّ... كفى... لقد اطلنا معك الصبر اكثر مما ينبغي...

تراجع الطفل الى نفسه بحزن شديد... منكمشاً كثيراً.

- ماما...

- اسكت... اسكت... والا قذفت بك من السيارة.

قالتها بتهديد شديد... وهي تلوح له بكلتا يديها... وبدا للطفل انه يلمح في عينها نفس الغضب الذي لمحته وهي تهجم عليه حين كان ملقى اسفل الثلاجة، فصرخ مستنجداً بابيه...

- بابا...

مما حمل فرهاد ان يقول لها بتأنيب شديد:

- داليا... دعي الطفل...

الا ان داليا وهي في عنفوان غضبها... واحتدادها على الطفل... فقدت السيطرة على اعصابها...

- انت الذي افسدته...

ثم اسرعت تصحح:

- تدليلك افسد عليّ الطفل.

امتعض فرهاد كثيراً، من تصرفها مع الطفل، واكثر من حديثها معه على هذا النحو... ولكنه لم يقل شيئاً، اكتفى بنظرة طويلة سددها نحوها... اضطربت داليا... ادارت وجهها... اشغلت نفسها بالنظر خارج السيارة... متجنبة مواجهته... بينما اخذ فرهاد يربت على رأس الطفل بحنان:

- تعال عندي ابني... تعال... امك تعبانه...

وامسك به من تحت ابطيه.

لم يقاوم الطفل هذه المرة، بل اندفع نحوه... حاملاً جسمه الهزيل... على اصابع قدميه... وحين غدا في حضن ابيه اخذ يلتصق به، وهو يطبطب على ظهره... واذ اطمأن الطفل الى رقة ابيه وحنانه... الذي بدا يغمر كل كيانه... قال بتوسل:

- بابا...

وتوقف...

- ها بابا... قل... ابني... تكلم...

القى بذراعيه حول عنق ابيه... قبل ان يقول بصوت واهن.

- بابا... نرجع الى البيت...؟

وفغر الأب فاه دهشة:

- ها...؟

ادخل عينيه الدامعتين... في عينية المتسعتين دهشة!

- نرجع الى البيت...؟

- لا... ناسو... لا... كل شئ... الا هذا...

- بابا... الله يخليك...

وانهمر على يديه تقبيلاً...

- لا... بابا... لا ناسو... هل تدري اين نحن الآن؟...

وقال ابو حيدر:

- بابا... البيت بعيد... بعيد جداً.

ومط... في كلمة «بعيد» كثيراً... واكثر من «بعيد جداً»

يقصد جعل الطفل يدرك مقدار البعد... الذي يعنيه

ولكن الطفل لم يرد عليه... ظل متعلقاً بيدي ابيه...

- بابا ناسوس يموت... والله يموت...

أحس الأب بألم كبير... وأخذ يعاني من مشاعر شتى، متناقضة معقولة، لا معقولة... ولكنها اليمة... كان يلتهب ويتمزق تحت غطاء الصمت الذي دخل تحته...

احس ابو حيدر بالشفقة ازاءه... وتطوع بفك الحصار المضروب حوله

- ابني ئاسۆ... انت عاقل... يجب ان تفهم... ان الطيور لا تموت.

اهمله ئاسۆ... حتى لم يلتفت نحوه... احس ابو حيدر بانصرافه الكلي عنه... ولكن ذلك لم يثبط عزيمته:

- انظر... ئاسۆ... انظر...

وسكت منتظراً حتى التفت نحوه ئاسۆ...

- انظر... هذا البلبل عندي منذ خمس سنوات... والى الآن لم يتمرض حتى... ولا يوماً واحداً... فكيف يموت...

- «لعابة» هذه لعابة... الا اعرف...

- تعرف... والله تعرفُ كل شئ... بارك الله فيك... ولكني اؤكد لك... ان ئاسۆسك لا يموت...

قال ئاسۆ:

- وماذا يأكل... ليس عنده... اي اكل...

وبرق ذهن ابي حيدر بجواب، اسرع في ايصاله اليه دون ان يهتم بمقدار ما يحمله من صواب... او من قدرة على اقناع الطفل:

- امه تجلب له الاكل...

- وكيف تدخل امه. ؟ ماما... اغلقت الباب...

وسعد ابو حيدر بالحديث مع الطفل كثيراً... لا فقط لانه انقذ والديه المتعبين من الحاحه... وانما لاحساس داخلي بانه يتحدث الى انسان صغير دخل قلبه...

- في هذه الحالة... يخرج هو من القفص... يأكل ويشرب ويعود... اليه... ثانية...

أجاب الطفل... بذكاء:

- باب القفص مسدود... وليس في البيت أي شيء حتى يأكل،

وانصرف عنه ثانية وهو يقول:

- أنت لا تفهم.

ضحك ابو حيدر بأنتشاء بينما أنَّبه أبوه...

- ئاسو... كيف تقول لعمك مثل هذا الكلام؟

- دعه ابو ئاسو... باللّه عليك دعه... كم هو لذيذ الحديث معه...

أن أبنك هذا حرسه اللّه، مدهش... مدهش... خذ... ئاسو خذ... هذه جائزة لك لـ... لذكائك...

وضم قبضته على شيء أخرجه من جيبه قبل أن يراه ئاسو، تردد الطفل في قبوله... حثه أبوه...

- خذها ابني... خذ جائزة عمك...

وحين مد ئاسو يده... سحب أبو حيدر قبضته، ضاحكا.

- لا... لا... لا تستعجل... يجب أن تعرف أولاً ما هو.

ارتد ئاسو... بينما راح هو يلاحقه:

- هيا... هيا... ئاسو انت شاطر... وستعرفه حتماً...

وتلكأ ئاسو في الجواب قليلاً... ثم قال:

- جكليت...

- لا...

وأظهر جزءاً صغيراً مما يخفيه في قبضته فصاح الطفل في بهجة:

- علك... علك ابو السهم...

- صح... والآن هات قبلة لعمك...

وقدم له ئاسو خده... وقبله أبو حيدر بأبوة وصرخ:

- اللّه...

ثم اضاف:

- والآن... افتح فمك... واغمض عينيك.

وامتثل ئاسۆ... وتريث أبو حيدر قيلاً... حتى عبرت سيارة كانت قادمة من كركوك... قبل ان يلقي بالعلك في فيه... وهو يقول:

- أو بەليس... ها ها ها...

قالها وهو يضحك:

- عندي حفيدة صغيرة جميلة... مثلك... سازوجك اياها... هاهاها.

واخذ ئاسۆ... يمضغ العلك، ويتطلع عبر زجاج السيارة الى مجموعة ابقار... كانت ترعى على مبعدة...

واذ رأى أبو حيدر انشغاله... قال وبصوت خافت:

- سينسى... القبح.

ابتسم فرهاد... وقال وهو يربت على شعر ئاسۆ... منطلقاً من خبرة طويلة مع ابنه:

- ربما... ولكن... لفترة...

- من الصعب على الاطفال ان ينسوا الاشياء التي يحبونها... خولة... حين فقدت دميتها... اشتريت لها اخرى...

- ولكنها لم تنس الاولى...

اضطرب أبو حيدر:

- ها... لا نسيتها... نسيتها...

قالها بأنفعال غريب.

١٨

- عِطار... بابا... عِطار...

هتف ئاسوّ... بفرح... وهو يرنو إلى القطار النازل من كركوك

- لماذا تقول عطار... قل قطار... بابا... قطار...

قال ابو حيدر وهو يضحك:

- يا اللّه... ما اغرب الاطفال، حفيدتي تلفظ الخاء حاء فالخيار... حيار... والخروف حروف... حتى اسمهاخولة... إذ ما سألتها عنه تقول حولة... ها... ها... ها... ما اجمل الاطفال...

- بابا العطار... طويل... طويل...

ووجدت داليا نفسها تغرق في هذا القطار الطويل... الطويل بعرباته المتعددة... وجك جك جكه... المتواصل...

استسلمت لذكريات بعيدة...

التفت اليها فرهاد، نبهها الى القطار... وإذ رآها غارقة فيه ابتسم... ابتسمت هي الاخرى... ودَّ فرهاد لو يحتضنها... يقبلها، نفس الرغبة ساورت داليا... فأخفض كل منهما عينه... واندمجا في القطار... الذي أدركته السيارة... وخلفته وراءها...

نبههما صوت ابو حيدر، وهو يقول إذ لاحت مدينة:

«طوز خورماتو.»:

- هذه طوز... اما نتوقف قليلاً... نتناول لقمة.

أجاب فرهاد:

- إذا كنت جائعاً...

وسأله ابو حيدر بدوره:

- وانت...؟ أم ئاسوّ؟... ئاسوّ؟... الا تأكلون شيئاً؟...

- انا بصراحة كل ما يهمني ان اصل اربيل...

سأله ابو حيدر:

- كم الساعة الان...؟

- الثالثة وبضع دقائق.

وراح أبو حيدر في تفكير قصير...

- الثالثة... والطريق يغلق في الخامسة...

ثم قال لفرهاد:

- قلت انهم يسمحون بدخول السيارات حتى السابعة أيضاً.

- اجل...

- اذن ستصل قبل اغلاق الطريق...

قال ذلك واتجه بسيارته صوب المطعم:

- الواقع... انا جوعان... هيا... لنأكل شيئاً...

التفت فرهاد الى داليا... التي كانت ما تزال تتعقب بعينيها حركة القطار القادم...

- وانت داليا؟

- ها؟...

- اما تأكلين شيئاً؟

- انا... لا... لا اشتهي شيئاً...

- اتبقين في السيارة... حارة!

ابو حيدر... سألها:

- لا... سأتمشى قليلاً... في الظل...

ترجل ابو حيدر... وتبعه... فرهاد...

- تعال... بابا... تعال انت معي...

وامسك ابو حيدر... بيد ئاسۆ...

قال فرهاد... لداليا:

- انا أيضاً لا أحس بالجوع... ولكن... سأشرب شاياً...

- فقط لا تتأخروا... لعلنا نصل قبل ان يدهمنا الليل...

قالت ذلك؛ وراحت تتأمل ثانية القطار الذي لحق بهم وتوقف...

في محطة طوز... بعرباته المتعددة، الفارغة... ودون ان يتقدم منه احد...

***

في محطة اربيل، وجدت فرهاد بانتظارهما، هي وعزيز...

خف اليهما في شوق وقلق:

- تأخرتما... لماذا؟...

ودون ان ينتظر حتى يسمع جواب سؤاله، سحب داليا من يدها... بينما مدّ الأخرى الى عزيز... يصافحه مودعاً وهو يقول:

- هيا... داليا... هيا... القطار على وشك التحرك.

الا ان عزيز ظل جامداً... لم يقدم له يده... مما اوقع فرهاد في حيرة...

- ماذا بك... يا عزيز...؟

اجاب عزيز ساهماً:

- ها... لا ادري فرهاد... لا ادري بالضبط...

- ما الذي لا تدريه يا عزيز... كل شئ معد... ما عليك الا ان تترك يدها...

- يدها؟... ها... آسف... آسف جداً.

وترك يد داليا... التي وقفت حائرة بين اخيها الذي اخذ يبدو عليه

التردد... وبين فرهاد، القلق المتلهف... الذي يكاد يمزقه الشوق...

- داليا... هل ثمة شئ...

نقلت سؤاله الى اخيها... عبر نظرتها اليه... فاجاب عزيز... الذي ادرك بان السؤال موجه اليه اكثر مما هو موجه الى داليا... متغلباً على تردده:

- لا... فرهاد... لا... لا شئ هناك ابداً... هيا... هيا قبل ان يفوتكما القطار... ولتنعما بحياتكما... قبّل داليا بحرارة... واحتضن فرهاد طويلاً... قبله بسرعة... ثم تركهما... بعجلة... وهو يلوح لهما بيديه... ويغادر المحطة، حتى قبل ان يتحرك القطار... واذ اتخذا مكانيهما في القطار... قال فرهاد:

- هذا الرجل عزيز... لا افهمه... ابداً... ماذا جرى له يا داليا... لم يكن طبيعياً...

- بسبب ماما...

- هل عرفت بالامر؟...

- لا... ولهذا لا يدري كيف سيواجهها...

امس... قال لها: غداً... تسافر داليا الى بغداد... لانجاز معاملات التوظيف... سألت؛ لماذا بغداد... كل زميلاتها تم تعينهن من مركز اللواء... لم يحر طويلاً امامها اذ سرعان ما قدح ذهنه بكذبة اخرى: ثمة اشكال في أوراقها... ولابد من سفرها الى بغداد... ازداد فرهاد اعجاباً بعزيز... وتضحياته من اجلهما:

- باللّه... تصوري هذا الرجل الذي لم يعتد ان يكذب حتى في احرج المواقف... يكذب الآن... ومن اجلنا

- نحن مدينان له بالكثير...

- سنرد له دينه... بان اسميه... شاهد الحب الاعظم ثم قال وهو يضحك:

- المهم... انت ذاهبة الآن... كي تتوظفي...

ابتسمت داليا:

- كي... اوظف كل حياتي... لحبك... واسعادك...

- اوه...داليا... حبيبتي...

واحتضنها بشوق غامر...

- في الطريق، لاحظت بعض التردد على عزيز...

سألته: ما بك يا عزيز؟ اجاب بسرعة... كما لو كان ينتظر هذا السؤال طوال الوقت: داليا... يخيل الي ان قوة اكبر مني تحدد افعالي... ربما هي قوة حبي لك... حبي لفرهاد... او هي قوة المنطق والعقل ومع هذا فلست ادري... ان كان ما افعله صحيحاً أم لا... لا ادري... يا داليا.

- اذن فقد انتابته الشكوك...

- ليس بالضبط... وانما كان متألماً جداً من اجل الوالدة... انت تدري مقدار تمسكها بمسائل الدين والكنيسة... ان الأمر بالنسبة اليها... سيكون قاسياً. قاسياً جداً... من يدري... قد يستحيل عندها شقاء طويلاً...

- داليا... لا ينبغي ان نبني سعادتنا على شقاء الذين نحبهم... وخاصة امك...

- ها؟.

وارتعبت داليا... ما الذي يقول فرهاد أيمكن أن يتراجع؟

- ماذا تقصد يا فرهاد...؟

- اقصد... ان اول عمل نقوم به... بعد زواجنا هو مصالحة الوالدة.

- اوه... فرهاد...

ودفنت رأسها في حضنه... بينما اخذ هو يغرز أنامله في شعرها المسترسل... ويقول:

- كل مـا تم كـان لابد ان يـتم... وبالشـكل الـذي تم به، لم يكن امـامنا شئ آخر سواه... ابداً... ابداً.

- صحيح... صحيح... وانا واثقة ان لا احد منا يندم... اطلاقاً...

- كان الندم يسمم كل حياتنا لو تصرفنا على نحو آخر...

- هذا فيما اذا كنا نبقى على قيد الحياة. وذلك ما اشك فيه...

- قطعاً ما كانت تكون لاي منا ثمة حياة.

***

- داليا... داليا...

واهتزت داليا...

- اكنت نائمة؟

- لا...

ثم اضافت من خلال ابتسامة مشعة:

- كنت اتذكر... ليلة سفرنا... من اربيـل...

واشـارت الـى القطار... واذ ذاك انتـبـهت الى ان القـطار كـان قـد غـادر المحطة، ربما فارغاً، مثلما دخلها... فضحك فرهاد:

- كان المفروض... ان تتمشي... قليلاً... كما قلت...

- استغرقتني ذكريات تلك الليلة... ما هذا بيدك؟

- لفة... لفة كباب... قد تجوعين في الطريق...

- تشبه اللفة التي اعدتها لي والدتي ليلة سفرنا...

- تلك كانت لفة بيض... وقد اكلتها انا...

وتفجر فيهـما شوق عـارم... ليعانـق أحدهما الآخـر... وان يبقيـا كذلك... كمـا كانا... في تلك الـليلة... في المقصورة... ولكنهمـا... اكتـفيا بالـضغط على اليدين... فقد كـان ابو حيدر... وهو يحمل ناسوّ بين يديه... ويدغده...

بحنكه... قد اقترب منهما...

- قبج.

- قبج؟...

- من الفخار أبى ابو حيدر الآ ان يشتريه له...

- ولكن ئاسۆ.. لم يكن يبدو سعيداً... بقبجه... كان يبدو كأنه يحمل بين يديه... جنازة...

- جنازة...؟...

وارتعبت داليا من الصورة التي قفزت الى رأسها في غفلة فتهربت منها...

- هيا... ئاسۆ هيا... اصعد... يا ابني...

١٩

قال ابو حيدر:

- الطريق خال... ترى... هل بدأ «منع التجول»

وضحك...

- لا... ما زلنا دون الثالثة... والنصف.

- الحر لا يطاق...

قالت داليا وهي تتهرب من الشمس التي غزت المقعد الخلفي...

- خذي... ابنتي... خذي.. هذه المنشفة... سدي بها الزجاج...

واخرج من تحت المقود، منشفة... وناولها... اياها...

- اتستطيعين؟... ام... اسده لك؟...

- لا... لا... دعني احاول اولاً...

واعانها فرهاد... واحتمت بالظل الذي أسقطته المنشفة على المقعد.

انتبه ابو حيدر ان ئاسوّ... يتأمل القبج... فسأله:

- ها... ئاسوّ... حلو ئاسوّسك... هذا؟...

- ليس هذا ئاسوّس...

قالها الطفل بأشمئزاز... وود لو يستطيع ان يرمي به خارجاً... ضحك ابو حيدر...

- ولكننا اتفقنا في المقهى ان نسميه «ئاسوّس».

- لا... لا...

اصر الطفل... وهو يرد الاهانة التي تلحق بطائره العزيز، واخذ يضجر من ثقل الكتلة الفخارية المصنوعة، على هيأة كائن غريب قبيح... لا هو قبج... ولا بلبل... ولا حمامة... ملامحه قاسيه... وملمسه خشن... اصباغه صارخة... وقد تشققت عند الاجنحة... واسفل المنقار...

تركها ئاسوّ تسقط على ارضية السيارة... متعمداً... لم يحفل بها احد... لا ابوه... ولا ابو حيدر... ولا امه... بالرغم من انهم جميعاً سمعوا صوت ارتطامها القوي...

«ما الفائدة انه لا يرضى عن طائره بديلاً... ولو قدمت له الدنيا » هكذا فكر ابو حيدر... قبل ان يقول بألم دفين:

- لا جدوى... لا جدوى... لا شئ يعوضه عن ئاسوّسه...

بدا كأنه يكلم نفسه... لذا لم يعلق عليه احد منهما بشئ... مما جعله ان يقول بغضب موجهاً الحديث اليهما مباشرة:

- ما كان ينبغي ان تتركا الطائر...

دهش فرهاد... وداليا... كثيراً منه... ومن لهجته الغاضبة... ولكن احداً منهما لم يفتح فاه بكلمة...

انتابه شعور بانه قد تمادى في التدخل في شؤونهم الخاصة، اكثر مما ينبغي... فقال معتذراً:

- آسف... آسف... ليس قصدي ان اثير الطفل... ولكني... متألم من اجله... متألم جداً...

ادرك فرهاد... صدق وحقيقة احساس الرجل:

- وأيّ منا لا يتمزق ألماً من اجله... ولكن فات الاوان يا ابو حيدر... فات الاوان...

هزّ ابو حيدر رأسه... وعض على شفتيه بحرقة... اخذ السيجارة التي قدمها له فرهاد، وهو يقول:

- كيف يدرك الطفل انه قد فات الاوان او لم يفت... لقد اغلق ذهنه على الطير... ولا يرضى بالدنيا كلها بديلاً.

قالت داليا... وكأنها تدفع عن نفسها تهمة:

- ذنبه... لو لم يلعب بالثلاجة... لما حدث... ما حدث...

لم يجبها احد... صمت متوتر... جثم على الكل فجأة.

كان فرهاد... يعاني... من الام شتى... في روحه اكثر من منفذ للالم... واكثر من قناة للاوجاع لتفرغ فيها... أبوه... يحتضر... وقد لا يلحق به... ولا يتزود منه بالنظرة الاخيرة... وناسوّ... يمزقه الغم والحزن والالم على طائره.

ما قاله ابو حيدر... ما يزال ينغرز في قلبه سكيناً... «ما كان ينبغي ان تتركا الطائر...» «اجل... بالتأكيد... ما كان ينبغي ان تترك الطائر... وبالتالي ان تجعل الطفل يتعذب على هذا النحو... القاسي...» وفكر «ولكن لو كان أبو حيدر هذا... نفسه في الوضع الذي نحن فيه... اكان بوسعه... انذاك ان يفكر بطير... او بسواه... اوه... ليس الشاكل... كالمعزي... ليس الشاكل كالمعزي... ان ابي يموت... يموت... يا ابو حيدر ولو تدري أي أب هو... آه... فقط لو تدري...

احس بنفسه تتمزق، بين ابنه، الذي انكمش على نفسه، وهو يرسل... الى الخارج عبر الزجاجة الامامية، نظرات ساهمة... وبين ابيه الذي يحتضر... فقد القى حديث ابو حيدر... ونبرة صوته... المتسمة بالصدق والتجرد... بدودة نهمة... في اعصابه اخذت تنهشها نهشاً... تفترسها بقسوة وشراسة... بل احيا الدودة التي تصور انها قد ماتت لطول صراعه الصامت وكفاحه المستميت ضدها... ولكن لا... لا ينبغي لها... ان تعود الى الحياة... ينبغي ان اناضل ضدها... ان اصارعها حتى اصرعها...

ثمة اباء لا يمتلكون بالنسبة لابنائهم بعداً آخر... عدا البعد البايولوجي والعلاقة بينهم وبينهم تتشكل، بحكم تواجدهم في بيت واحد... او تستمر بسبب ذلك التواجد... «ولكن الامر بالنسبة لي مختلف... مختلف تماماً... فباران صديقي... ومعلمي... و... و...

***

قال فرهاد:

- ثمة قضية تشغلني منذ زمن... ولابد من طرحها عليك... ولكني متردد

- ولماذا التردد يا ولدي؟...

- انا ايضاً اتساءل... لماذا التردد ازاءك انت بالذات وقد عودتني على الصراحة في كل شئ...

- اذن... هات ما عندك... ولا تتردد...

- أنا... أنا... أ... أحب داليا...

وقذف الكلمتين الاخيرتين من فيه... كما لو كان يقذف بجمرة نار توشك ان تحرق فاه.

قابله الرجل ببرود:

- تحبها ؟...

ثم ضحك وهو يضيف:

- ومن منا لا يحبها... هي واحدة منا.

تأكد فرهاد انه قد ادرك قصده جيداً... ولكنه لم يدر لماذا يحاول تجاهله... ربما لكي يمنح نفسه فرصة لتحديد موقفه... او لكي يمهد الطريق امامه... فرصة لتحديد موقفه... او لكي يمهد الطريق امامه... للتراجع ولكن لا... لابد ان انهي المسألة:

- اقصد... اني احبها... واريد أن...

تجهم وجه الوالد، وقال بغلظة...

- داليا... اختك.

- داليا اختي وامي واخي... وكل شئ بالنسبة لي ولهذا فانا أريد ان اتزوجها...

- ......

أحتار الاب، بينما واصل فرهاد حديثه:

- ابي... أنت صديقنا ومعلمنا... ولابد ان تنظر للقضية في وضعها الطبيعي، وضعها الانساني...

- و... و... هي... ما رأيها...

- تحبني... مثلما احبها.

- هـ... هل... تكاشفتما... أم ان المسألة كلها مجرد احساس خاص بكل منكما...

- تكاشفنا... واحدنا لايجد له سعادة من دون الآخر...

فردد الاب مع نفسه:

- اذن فقد كبرتما... حتى تحبا... و...

واطمأن فرهاد... اذ لمح ظلال ابتسامة على شفتيه:

- هل فكرتما بالاشكالات التي تعترض زواجاً من هذا النوع.

- اشكالات يخلقها ناس متخلفون فكرياً واجتماعياً.

ما شأننا بهم؟

- لستما في جزيرة معزولة.

وحين هم فرهاد ان يتكلم... قاطعه:

- لنؤجل موضوع الناس مؤقتاً... ما رأي امها...

وعزيز؟

- عزيز... لا يقل عنا حماسة...

ابتسم الاب بارتياح:

- عزيز... ابن ابيه... وأمها؟

- أمها... لن توافق بسهولة... وقد قررنا أن نضعها امام الامر الواقع.

- قررتم؟

- اجل... انا وداليا وعزيز...

- هكذا... اذن...؟

- والآن نريد موافقتك... انها تعني بالنسبة لنا الكثير

تردد الاب مرة اخرى:

- داليا ابنة الياس... وتدري جيداً، ماذا يعني بالنسبة لي كونها ابنة الياس... يعني... أنها بنتي كما انت ابني... ولم يدر بخلدي ان ازوج اخوين من بعضهما.

- تلك نظرة مثالية الى الواقع... ثم ان زواجنا تعزيز لهذه الاخوة... ودفع بها الى الاندماج الاقوى...

- صحيح ما تقوله صحيح... انه خطأ في تقديراتي، كان ينبغي ان افكر بالعلاقة الطبيعية التي يمكن أن تنشأ بينكما...

وسرح بذهنه قليلاً...

- لتغمدك الرحمة الى الابد... يا الياس... ادركت الامر وهما مجرد طفلين...

- اذن فانت موافق؟

قالها فرهاد متهلل الوجه...

- بشرط...

وسكت... فترة. غاص فيها قلب فرهاد:

- اذا كنت تجد في نفسك، القدرة على اسعادها. سعادتها تعني سعادتي... ولن اقول اكثر...

***

- ئاسۆ... فرهاد الا تنتبه الى ابنك...

وانتبه فرهاد... كان ئاسۆ قد امسك بالبلبل المتدلى من اسفل المرأة فصاح به:

- ئاسۆ...!!

- دعه... يا اخي... دعه... دع الطفل يلعب.

- اخشى ان يقطعه يا ابو حيدر.

- ليقطعه... وماذا في ذلك.

واسرع ابو حيدر ينتزع البلبل من موضعه بالرغم من كل احتجاجات فرهاد وداليا...

- خذ ابني... خذ...

ولكن ئاسۆ لم يمد يده... فتركه ابو حيدر في حضنه...

فقال... له ابوه:

- خذه... ابني... خذه... ما دام قد انتزعه...

غمر ابا حيدر حزن شديد من اجل الطفل... اه... لو كان بوسعه ان يعيد الابتسامة الى هاتين الشفتين المطبقتين... والبهجة والحيوية الى هذا الوجه الشاحب...

اذا كان قد فشل مع حفيدته... فكم يود من اعماقه ان ينجح مع ئاسۆ... ولكن ماذا بوسعه ان يفعل... كيف السبيل الى جعل ابويه يريان ما يراه... هو... ماثلاً امام عينه دائماً... كيف له ان يمنع حدوث ما حدث... لحفيدته... آه...

ووجد نفسه يرفع يده اليمنى عن المقود... ليحطها برفق فوق رأس...

ئاسۆ... يمسد خصلة الشعر الامامية... لماذا حلقوا له رأسه على هذا النحو... اى حلاقة هذه؟

استسلم الطفل لمداعباته... بألفة بالغة

- الطفل نعسان...

- تعال... ئاسو... تعال ابني... نم عندي.

ولكن الطفل لم يبد اية رغبة للاستجابة لامه.

قال فرهاد :

- هيا... بابا... عند امك... عمو لا يستطيع ان يسوق اذا بقيت ممدداً على رجله...

٢٠

- نام؟...

تساءل فرهاد، إذ طالت فترة الصمت التي دخلها ئاسو.. وهو يستدير نحو زوجته:

اشارت اليه بسبابتها... ان اسكت... اسكت، لا توقظه.

لكن ئاسو، بالرغم من الصمت الطويل الذي اطبق عليه لم يكن نائماً؛ لجأ الى الصمت لانه احس بأنه قد فقد القدرة على التواصل مع هؤلاء... ابو حيدر وحده يمكن ان يستجيب له... ولكن ليس بوسعه، ان يحقق شيئاً له... اما ابوه... اما امه... فما الذي جرى لهما... انهما لا يدعانه حتى يتحدث مجرد الحديث عن طائره... لماذا؟... ماذا دهاهما... اليوم لم يكونا ابداً على هذه الحال...

واذ ظل عقله عاجزاً عن اية اجابة، دخل صمته، وراح يلوك همومه وأحزانه، في وحدة قاسية؛ لو لم تغلق امه الباب... والشبابيك لربما دخلت امه... كما يقول عمو ابو حيدر... واطعمته... أو لو لم يغلق هو باب القفص... لخرج المسكين. وعثر لنفسه على شئ يأكله... ولكن كيف يتركه مفتوحاً...؟ يدري الله ماذا يحدث له... ان فعل.

والآن... ماذا يحدث له؟... سيظل يشرب الماء... ويشرب... ويشرب لانه... ليس أمامه غير الماء... فينتفخ... وينتفخ ثم طاق... كما يحدث حين يملأ هو... بالونات الهواء الرقيقة، بالماء... اكثر من طاقاتها.

لا... ياربي... لا... لا تجعله... يطق... لا تجعله يموت... واذ فتح عينه... سألته امه:

- الم تنم...؟

وقبل ان تنتظر جواب الطفل اضافت:

- نم... ابني... نم...

وراحت تهزه في حضنها... احست به... نحيلاً... ضعيفاً الى حد لا يصدق... ترى، حين كان في بطنها... الم يكن اكبر حجماً مما هو الآن... تجده... صغيراً... خفيفاً، بينما حين كانت حاملاً به ولا سيما في شهورها الاخيرة... كانت تحس بثقله... يثقل مشيتها وحركتها... حتى امها بهتت... من كبر حجم حملها:

***

امها كادت تجن حين علمت بزواجها من فرهاد... لم تترك سبة ولم تلصقها، بعزيز خاصة، وبها... وبفرهاد، وو... وظلت لاكثر من سنة... لا تسمح باى حديث عنها. او عن زوجها... حتى قطعت كل امل لها ان تسامحها... واخفقت كل محاولات الناس الطيبين في هذا الصدد.، ذات يوم قال فرهاد:

- انا واثق... انها ستسامحنا..

- ولكن متى. يا فرهاد... متى؟

- لا ادري بالضبط متى... ولكن ربما حين تضعين حملك الاول. هكذا يخيل إليّ... ناخذ الوليد معنا ونذهب اليها... مرة اخرى... انذاك لن تغلق الباب بوجهينا... او بالحرى بوجوهنا... فمهما بلغت القسوة بامرأة لا يمكن ان تبلغ حد طرد... اول حفيد لها.

- انت لا تعرفها يا فرهاد انها... منذ قتلوا زوجها لم تعد تعرف الرحمة ازاء احد...

- ثمة ظروف تخلق من الانسان صخراً... ومع هذا... ساكتب اليها رسالة.

- وما جدوى الكتابة، لقد كتبنا اليها حتى الآن اكثر من خمسين رسالة.

- انها محاولة... وعلى اية حال... لا ضير منها... سأقول لها ان داليا في شهرها الاخير... وان حياتها وحياة حفيدك متوقفتان عليك...

و... وذات يوم ممطر خفت على طرق على الباب... ووجدت نفسها وجهاً لوجه... امام... يا الهي... امها...

- اوه... ماما...

وكادت يغمى عليها... من هول المفاجأة... وزخم الفرح الذي تدفق من اعماقها:

- آه... يا ملعونة... اذن. فقد حملت من المسلم...

- ماما...

- لا بأس... لا بأس... انه ولد... اتدرين يا داليا...

ما تحملينه ولد... بحق العذراء... الولد فقط يجعل البطن بهذا الحجم.

- اوه... ماما...

وانعقد لسانها من الفرح... ولم يعد بوسعها ان تقول اكثر

- اوه ماما... اوه... ماما... ما هذا؟ لن تجعليني اظل واقفة على الباب الى الابد...

- اوه... ماما... نسيت... انساني وجودك كل شئ...

واخذت تدفن رأسها في حضنها... تشم رائحة امها... تتحسس دفئها... تتلمس وجودها، كطفلة صغيرة...

- يا ملعونة... منذ زمن لم ارك... لقد كنت قاسية معي يا داليا.

- انا؟. انا... يا ماما...؟... لا بأس... لا بأس...

لكن... لكن... اغفري لي قسوتي... يا ماما... اغفري اى خطأ ارتكبت... ولتذهب تلك الايام الى جهنم... المهم... انت الان في بيتي... في بيتي اه... يا الهي... لا تدعني أمتَ... من الفرح... ماما... اكاد... لا اصدق...

كم مرة اغلقت الباب بوجهنا... كم مرة تركت اربيل وسافرت الى اخيك في الموصل... بمجرد ان سمعت بمجيئنا.. اليك... اه... لماذا يا ماما...... لماذا؟...

اى ذنب جنيت...؟ اية جريمة اقترفت... اهي جريمة ان احب انساناً واتزوج منه... ماذا يهمني من دينه؟

مخالف لديني. ؟. ليكن... اني احبه... والحب هو القانون الاسمى والارقى للحياة...

ولا ينبغي ان ندع الاديان تعمل على التفريق بين البشر... بصنع الحواجز والسدود الموهومة بين الانسان وبين اجزائه المبثوثة في الاخرين...

في «عينكاوة» تلك القصبة الهادئة... المرتخية على اكتاف اربيل، المنسرحة كجدائل عذراء... ببيوتها... المتداخلة بقلوبها المتآلفة... بناسها الفقراء... الطيبين الى حد الالوهية... لم تحس يوماً بانها تختلف عن سواها... كل العوائل... عائلة واحدة كبيرة. كل البيوت بيت واحد كبير...

لاول مرة احست بفارق بينها وبين الاخريات اقلقها الاحساس... آلمها... وذلك حين اخرجتها معلمة... الدين، مع بضع صبايا اخريات... من الدرس...

سألت امها عن هذا الأمر الغريب... قالت:

- أبنتي... أن لنا ديناً آخر... هو...

قاطعها عزيز... بحدّة...

- لا تسممّي افكار الطفلة... هذه مسألة عادية يتكفل التطور بحلها...

أيكون التطور... أو شيء أخر... قد حلها فعلاً... بالنسبة لأمها على الاقل... ها هي مائلة امامها... بلحمها ودمها... وهي تحتضنها... وتلثم النجمة المضلعة التي تتدلى من رقبتها... التقت شفاهما... فوقها... فأحست المرأتان باحساس عميق يشدّهما... ويزيد من عناق الواحدة منهما للأخرى...

***

شعرت داليا... بطعم غريب في حلقها... انتبهت انها كانت قد ادخلت النجمة في فيها... تمصها... اذ لم تكتف بلثمها...

- اوه...

لاحظ فرهاد... ان «ابو حيدر» قد خفف من سرعته كثيراً... وهو يخرج عن الشارع... الى تحت ظلال شجرة توت وارفه اوقف السيارة... وقال وهو يترجل منها:

- تسمحون لحظة...

واتجه خلف تل صغير... بضع دقائق... ثم عاد وهو يزرر فتحة سرواله...

- خفت الحرارة... بعض الشيء... ها...؟

قال ذلك وهو يتناول سيجارة من علبته، ويقدم اخرى لفرهاد...

إلا أن فرهاد امتنع عن قبولها... شاكراً...

- شكراً... دخنت كثيراً... احس بمرارة في حلقي...

- لعنة اللّه... على الدخان... لقد نخر صدري...

- ولكنه يبدو عاجزاً عن التأثير على اسنانك...

ضحك ابو حيدر:

- انا رجل متهدم... كل ما بي متهدم... واسناني اكثر اجزائي تهدماً...

- بالعكس... انها تبدو... قوية... بيضاء...

- لا يغرنك مرآها...

واضاف بعد ضحكة قصيرة:

- انها... اصطناعية...

- اصطناعية...؟ لا اخفي عليك اني منذ رأيتك اغبطك عليها...

- ها ها ها... ماذا نفعل حين يتقدم بنا العمر... نلجأ الى الاحتيال ولكن... لا يصلح العطار... ما افسد الدهر.

- اما كفاك... يا ولدي... ما تفعله بنفسك...

وانتبه الرجلان الى ئاسۆ... مرة اخرى...

- الم ينم... حسبته قد نام...

- لقد ادمى... عينه... طوال الوقت يبكي...

أحس فرهاد... بعجز... عن قول اي شئ... فاكتفى بأن تساءل:

- والنتيجة؟... الى متى سيظل يبكي...

قال ابو حيدر... ونهنهات ئاسۆ تنزل رصاصاً مصهوراً في ضميره:

- لا حول ولا... سيقتل نفسه... هذا الولد...

استسلم فرهاد لعجزه... تماماً:

- لا ادري ماذا افعل... لا ادري...

قال ابو حيدر:

- اتسمح لي ان اقول لك ماذا ينبغي ان تفعل...؟ او... او ماذا كنت افعل... لو كنت مكانك...؟

تساءل فرهاد بيأس:

- ماذا؟...

- كنت ارجع!

- ترجع...؟

صرخ الرجل والمرأة... وكل منهما يخيل اليه انه يستمع الى صدى ما يعتمل في نفسه...

- ما بالكما ارتعبتما؟.

وشعر فرهاد... بان الدودة قد عادت تقرض اعصابه... فقاومها... ولكن بضعف ووهن... انعكسا... في صوته المخنوق:

- ولكن... كيف يمكن ان نرجع... لا... لا... لا يمكن ان ارجع...

- لم اقل لك ارجع... قلت لو كنت مكانك... لرجعت...

ثم اضاف وهو يزفر:

- هه... ينبغي ان يكون للانسان اعصاب من حديد... حتى يتحمل طفلاً يبكي... منذ الصباح...

- لم نسمع احداً... مات من البكاء...

قالتها داليا... وهي تحس بانها تحارب بسيف من خشب... تحارب من؟... افكارها... وعواطفها... اكثر مما تحارب... رأى «ابو حيدر»

- من يدري... يا ابنتي... من يدري... صحيح الاعمار بيد الله... ولكن ثمة احزان... تقصم العمر...

منذ فترة غير قصيرة... ومنذ ان القى ئاسوّ القبج الفخاري... ومنذ ان اهمل البلبل البلاستيك... وتدحرج اسفل المقاعد... دون ان يحس به سواه... وفكرة شبيهة بالتي يقولها ابو حيدر... عن الاحزان التي تمتص سنوات العمر... تأكله بصمت... تراود ذهنه يتجاهلها حيناً... ولكنها تعود تستولي عليه... فيقاومها... بافكار مضادة... ولكن هشة... رخوة لا تصمد امامها... فيتهرب منها... الى حديث يغرق فيه نفسه مع نفسه... مع ذكرياته القديمة... اومع «ابو حيدر»... او زوجته او حتى ئاسوّ... نفسه...

والآن... اين يهرب... ها هو ابو حيدر يضعه وجهاً لوجه امام كل مخاوفه... يجسدها... له في عبارة قصيرة... ثمة احزان تقصم العمر...

- انا جد... يا ولدي... صدقاني لو كنت على فراش الموت... لفضلت ان تنصرف حفيدتي... الى العابها... على ان تذرف من أجلي دمعة واحدة... ولباركت كل من يساعدها في ذلك في ابدال دمعتها... بضحكة... بابتسامة... باشراقة في وجهها... ولكن... آه... «لا رأى لمن لا يطاع»

٢١

اسندت داليـا رأسـهـا الى زجاجة السـيـارة... لو تنام بعض الوقت اذن لحققت لنفسها خلاصاً ولو مؤقتاً، من كل ما يحيط بها... وودت لو يمتد نومها... ولا تفتح عينها الا في بيت عمها... قد يكون ما ينتظرها. هناك اكثر شقاء وبؤساً من كل ما تعاني... ولكنها تكون قد وصلت دون احساس كبير بالذنب... وتخلصت من هذا العذاب الذي تعانية... الا ان حرارة الشمس عادت تلفح وجهها... وتسيل على جسمها خيوطاً متقطعة من الماء، فابعدت رأسها عن الزجاجة... انتبهت الى ان المنشفة قد سقطت منها... لم تهتم برفعها. او اعادتها الى مكانها... فكت.

«الاشارب» من رأسها... فتناثرت خصلات شعرها الذهبي الطويل... فتحت شباك السيارة... فلفحها الهواء هذه المرة... حاراً... اغلقته وراحت تمسح العرق المتصبب على وجهها... فتحت شق ثوبها الاسود من جهة الصدر... واخذت تمسح رقبتها وصدرها... «لا لا ادري لا ادري... ماذا يتحتم عليّ ان افعل...» وودت لو يتكفل فرهاد بالامر... اذن لسبب لها راحة كبيرة... اخذت تلثم النجمة المضلعة... بابا... لو كنت انت فرهاد... وكنت انا، ئاسو... اكنت تدعني... ان... ان... لا ليس هو فرهاد وحده الذي يدع الطفل يتعذب... بل ربما انا... انا المسؤولة... اه...

رفض فرهاد سيجارة اخرى من «ابو حيدر» شاكراً:

- تعبان ابو حيدر... تعبان

احس... بنفسه ضعيفاً... متعباً الى حد بعيد... يسري التعب في كل مفاصله... يعصرها عصراً قاسياً... يسحق عظامه... يفتت لحمه... تهاجمه افكاره... بشراسة... تغرقه في لجها... احياناً، تقذفْ به على السطح احياناً اخرى... ولكنها تظل تشده الى نفسها...

رأى في حصر افكاره في ابيه حصناً يقيه هجمات افكاره... ويحميه ضد الضعف الذي يوشك ان يتغلب عليه... فسرح بذهنه بعيداً... الى ايام كان صبياً صغيراً... حيث ضبطه ابوه في سرقة... اجل سرقة... وبدا له انها نهايته... الا ان الاب تصرف معه على نحو آخر... تماماً...

***

في فترات الجفاف، حيث تبخل السماء بمائها... أو لا تنزله الا يسيراً... لا تروي من عطش... ولا تبلل من يبس فيذبل الزرع... وتحترق الخضرة... وتعلو شكاوى الاغنام في ثغاء ضعيف متقطع... ليختلط في خوار الابقار والثيران لتستحيل في النهاية الى احاديث ليلية مؤلمة في بيوت الفلاحين تنتزع القشور عن جروح عميقة... قديمة... حفرتها في القلوب فترات جفاف سابقة...

كانت مجاميع من الصبيان، لا يتجاوز اكبرهم العاشرة... يندفعون نحو البيوت، بعد ان صبغوا وجه هذا الكبير بالسواد... وهم يحملون صفائح، معلقة الى رقابهم... بخيوط متينة، يدقون عليها دقة واحدة، في صخب وضوضاء وهم يرددون آغاني للمطر... ويتوجهون نحو البيوت حيث يقودهم كبيرهم... خلفه بصوت واحد:

- كوّسه وه‌وى... كوّسه وه‌وى

فيقف هذا الكبير... متواجهاً معهم... يوجهه الملطخ بالسخام... يرد عليهم بصوت جهوري:

- كوّسه...

ثم يواصل سيره... وبين كل بضعة امتار تتكرر الوقفة ويتكرر الترديد... وتتحول المسيرة الى سيل عارم من الاطفال والصبيان والفتيان... فيطرقون على الابواب التي تفتح لهم عن نسوة يرشونهم بشلالات من الماء... ثم يعقبنها... بما تجود به انفسهم من قمح... او طحين... او شعير... او قطع من الخبز اليابس... او برغل... او عدس... او...

او... تجمع كلها في كيس كبير... يقدمونه... بعد ذلك الى احد المعدمين...

قال عزيز الذي كان غالباً ما يمثل دور الكبير قائد الصبيان أي الـ «كوّسه»:

- هذه المرة نأخذ الهدايا الى بيت «مامه ويّس»

فصرخ الجميع خلفه:

- الى بيت مامه... ويّس.

ومامه ويس... «العم ويس» كان شيخاً قد تجاوز الستين، يعمل في حراسة طاحونة احد الآغوات الاقطاعيين التي باتت مهجورة بسبب الجفاف... وبات معه العم... ويس وزوجته وابنتهما... لا يكادون يجدون ما يسدون به الرمق...

وتوجه الجميع الى الطاحونة المهجورة... التي نشف حتى ماؤها... والتي وافق صاحبها الاقطاعي، ان يتخذها «مامه ويّس» مسكناً له... مقابل حراسته لها...

توجهوا... وهم لا ينقطعون لحظة عن صخبهم وصياحهم... كوّسه وەوى... كوّسه وەوى... كوّسه...

هرعت ابنة «مامه ويّس» الشاحبة الصفراء الى الداخل حين رأتهم مقبلين... فخرجت امها... وقد اطبقت كفيها... على شئ ما تحمله اليهم... وتتقدم من حامل الكيس:

- اولادي... عمكم... «مامه ويّس»... مريض... لم يأكل شيئاً منذ يومين... ونحن فقراء... يا أولادي... اعذروني إذ لا استطيع ان اقدم لكم اكثر من حفنة الشعير هذه...

وهمت ان تفتح الكيس وتفرغها فيه...

فبهت الكل وترقرقت اكثر من دمعة في اكثر من عين... خيم عليهم ذهول تام... كان عزيز بما عرف عنه من جرأة... ونضج في التصرف...

اسبقهم الى الخروج من ذهوله؛ فامسك بكلتا يديها وقبلهما ووضعهما على جبينه... قبل ان يقول لها بلهجه خطابية:

- يا امنا... العزيزة يا أمنا العزيزة المباركة... نحن جلبنا لكم بعض الهدايا التي جمعناها... ورجاؤنا ان تتقبليها من اولادك...

- انتم... آه... يا اولادي... يا اولادي... دعـــوني اقـــبلكم... كلكم... كلكم... واحداً... واحداً...

ولمح فرهاد اشراقة مليئة بالحياة في الوجه اليابس...

وفرحاً متألقاً في عيني الفتاة الذابلتين... وهي تلتقط قطع الخبز...

همس فرهاد في اذن عزيز:

- امي تحتفظ في السرداب بكيس طحين... هلم بنا... نجلبه لهؤلاء.

وافق عزيز على الفور. ولكنه قال:

- هؤلاء اخذوا حصتهم... بقى العشرات من امثالهم... هيا بنا الى البيت، ثم نقرر لمن سنأخذه.

وبينما كانا... يفرغان الطحين... انتبها الى الاب يقف على رأسهما. فكر فرهاد، قبل ان يلتفت نحوه «دلشاد اخبره، وحده الذي رآنا، حين دخلنا السرداب...»

قال الاب بصرامة:

- ماذا تفعلان...؟

غاص فرهاد في اعماقه، لم يجرؤ ان يفتح فاه، بينما اجاب عزيز... بهدوء... وجرأة:

- عمي باران... نأخذ بعض الطحين... لنوزعه على الفقراء...

وقبل ان ينطق الأب بشئ، اندفعت امه، يتبعها دلشاد فتأكدت كل شكوك فرهاد...

- ايها الجروان... أبلغت بكم الوقاحة الى هذا الحد؟

احتد الاب:

- انهما لا يفعلان شيئاً...

- انهما يسرقان... وماذا تريدهما يفعلان اكثر من السرقة؟

- دعينا... دعينا الآن...

- لا... لا ادعهما... يأخذان... الطحين.

- من أين لك هذا الطحين؟... ولماذا أخفيته...؟

وارتبكت الام:

- سيكون لهذا حساب آخر... والآن اخرجي ودعيني مع الولدين...

وبينما كان الولدان يحسبان الف حساب لما يمكن ان يفعله بهما... اخذ الاب، بخلاف كل حساباتهما وتوقعاتهما... يساعدهما... في ملء الكيس... وإذ كانا يخرجان قال لهما... بصوت هادئ:

- لي حديث معكما... كليكما... حين تعودان...

لم يشك احدهما... بان الامر لم ينته عند هذا الحد...

عزيز... قال:

- صحيح هو في مقام ابي... وربما اكثر... ولكن لا اسمح له ان يرفع يده عليَّ... لاني... لم اخطئ.

تخلف عزيز... بينما لم يجد التأخير فرهاد. إذ كان لابد ان يعود الى البيت.

- اين عزيز؟

- لم يأت...

تجاوز الاب السؤال عن السبب.

- ما فعلتماه... ينطلق من شعور نبيل... بآلام وجوع الناس ولكنه شعور... اخطأ الطريق الصحيح للتنفيذ...

قال ذلك كما لو كان يتحدث الى رجل... لا... الى طفل لم يبلغ العاشرة... من العمر...

- ليس ذلك طريق حل مشكلة الجائعين والفقراء... ان لذلك طريقاً آخر...

سأله بلهفة:

- ماهو...؟ اين هو...؟

- ستعرفه... يا فرهاد... سأجعلك او يجعلك غيري ان تعرفه وستشقى في سبيله كثيراً... وتتعذب ولكنك تظل متعلقاً به... ولن تجد خارجه... سعادة حقيقة لك... ثم عانقه، وهو يقول:

- اني اتوسم الكثير... فيك وفي عزيز...

وظل، بعد ذلك، يحدثهما... حديث رجل لرجلين...

وصديق لصديقين... كلما وجد من الوقت فسحة.

***

- انت لا تدري يا ابو حيدر... لا تدري اي اب هو ابي...

دهش ابو حيدر... ولم تكن دهشة داليا بأقل من دهشته.

- لا ادري... عن اي شئ تتحدث... يا ولدي...

قالها ابو حيدر:

- اوه... آسف... آسف.

هزّ ابو حيدر رأسه وقال بغلظة:

- الامر كما تقول... فأنا لا اعرف الكثير عن أبيك... وربما حتى القليل... ولكني اعرف الكثير عن هذا الطفل الذي يذوي وعن طائره ناسوّس... أيضاً.

٢٢

- الماء وحده... غير كاف للطيور... ماما... أليس كذلك؟

- الماء؟... لماذا الماء وحده؟...

- لان... ثاسوّس لم يبق عنده غير الماء... و... يمكن... يمكن حتى الماء خلص.

وغاص قلب داليا... إذ تذكرت انها رفست القفص وانسكب الماء...

فقالت بصوت متشنج:

- أ... الماء... أ... الماء؟

- ملأت له الطاسة... ولكنه الآن حتماً... شربها... كلها... او رفسها...

انا التي رفستها... انا التي تركت الطائر بلا ماء... بلا اكل... محبوساً في قفصه... آه... يا ولدي...

- كفاك... تمزيقاً... لقلبي... يا ولدي... بالله عليك...

قالتها بصوت عال متوسلة لعل فرهاد يسمعها... فينقذها منه... أن يأخذه عنده على الاقل... او يلهيه بحديث آخر... ولكن لم يبد على فرهاد انه قد سمعها... فأضطرت ان تصيحه:

- فرهاد... فرهاد...

اجابها ابو حيدر:

- نائم... نائم... اتريدين شيئاً ام ثاسوّ؟

- ها... لا... لا... دعه...

اريد شيئاً؟... طبعاً اريد... اريد ان اهرب اليه... اريد ان يحميني من هذا الصغير...

إذن... وحدي... وحدي... معه... لا بأس... عليّ ان اجني ما زرعته

يداي... من يدري بالمدة التي سنضطر الى قضائها في اربيل... وبعدها... إذ نعود... سنجد القبج الجميل الذي ملأ حياتنا... واعاد الحياة الى ئاسۆ... قد استحال الى جثة... يفترسها النمل... آه... لو لم تنس المفتاح... لو لم تنس المفتاح... لاعطيته لهذا الرجل الطيب ابو حيدر... يفتح الباب... يأخذ القبج عندهم... او يعطيه... لبيت حسين...

اية حماقة ارتكبتها هذا الصباح... وجعلتها تتصرف على ذلك النحو القاسي الخالي من الرحمة والعقل...

لماذا رفست القفص... لماذا؟... لماذا؟

أليس بالامكان ان نرجع؟... ها؟... نرجع... لا... لا...

يا الهي... اي شيطان لعين يلقى بهذه الافكار المجنونة في رأسي... اللهم عونك... الرجل هناك يحتضر... وانا هنا احصر كل اهتمامي في طائر... ولكن... أهو الطائر الذي يستقطب كل افكاري... ام هذا الجزء العزيز مني... آه...

- ئاسۆ... انظر... انظر... اترى هذه النيران؟...

ورنا ئاسۆ... حيث اشارت امه...

- هذه نيران باوا گرگر... لقد عبرنا كركوك... وبعد قليل نكون في اربيل في بيت جدو... ويأتي خالو... وبيبي... و...

وتلاشى حماسها المصطنع في الحديث... تهدمت القلعة التي أرادت ان تحتمي بها... إذ وجدت ئاسۆ قد عاد الى وضع رأسه فوق فخذها مستلقياً هذه على ظهره... يرنو الى مجهول داخل السيارة...

- ئاسۆ... روحي... لماذا لا تنام قليلاً؟

- بابا... نام؟...

- اجل... بابا...

- ماما... ئاسوّس أيضاً ينام؟

- اجل ماما... اجل... حين يتعب ينام...

ثم... والقى في ذهنها سؤاله فكرة... يمكن ان تخفف عن الطفل بعض آلامه...

- وهكذا يا ئاسو... ينام ئاسوّس... فلا يعود يشعر... لا بالجوع...

ولا... بالعطش... وحين نعود... تقف انت على رأسه... وتقول... له... هيا... هيا... أيها الكسلان... انهض... انهض...

- ئاسوّس... ليس بكسلان...

- إذن تقول له... هيا... ايها الشاطر... هيا...

- الجوعان... لا يستطيع ان ينام.

قالها... كحقيقة راسخة، لا مجال الى مناقشتها...

- لماذا...؟

- اما تقولين لي كل مرة... يجب ان نتعشى قبلما ننام... الجوعان لا يستطيع النوم.

- اوه... يا الهي...

قال ابو حيدر، بعد صمته الطويل:

- ذاكرة الطفل... لا تنسى الامور بسهولة...

- لم اعد قادرة عليه... انه يسد كل الابواب في وجهي...

وظن الطفل انه يقدم لها باباً مفتوحاً حين قال:

- ماما... لنرجع الى البيت...

ولم يدر انه يفتح في قلبها الجرح الذي لا يندمل... فتهربت:

- فرهاد... فرهاد...

وانتبه فرهاد...

- ها... داليا... أتريدين شيئاً...؟

وهمت ان تقول له... انقذني من ابنك ولكنها ابدلته بطلب آخر:

- خذ... ئاسو... عندك... لقد تعبت رجلاي...

ولكن ئاسو... الذي كان التعب قد نال منه... ووجد لنفسه بعض الراحة في استلقائه على ظهره، على ذلك النحو... رفض باصرار:

- لا... لا... هنا... احسن... احسن...

- إذن، آتي... انا عندكم... تسمح... تسمح ابو حيدر؟

- تفضل... استاذ... تفضل...

وتوقف ابو حيدر... حتى اتخذ فرهاد مكانه في المقعد الخلفي...

احس فرهاد... براحة... إذ اصبح بعيداً الى حد ما... عن «ابو حيدر»... الذي لابد ان يعود الى التلاعب بجروحه...

- تعال... ئاسو... تعال عندي... دع امك ترتح...

وابتعدت داليا الى اقصى الجانب الآخر... غارقة نفسها في النظر الى الارض المتموجة الجرداء... الصاعدة الى اربيل.

- بابا... ئاسوَس... سينتفخ حتى... ينفجر...

- ينفجر؟... أهو بالون...؟

- ينفجر... من كثرة ما يشرب من الماء...

- بالعكس... يرتوي من الماء...

- ولكنه يظل يشرب... ويشرب... حتى...

- لايشرب، بالطبع، اكثر من حاجته.

- بل يشرب... اذا كان لا يجد شيئاً يأكله فهو يملأ بطنه بالماء...

وند من داليا... التي جرّ ئاسو... بحديثه كل اهتمامها اليه، صوت غريب:

- عـ... عــ... عــ... عوع...

توقف السائق اول ما صاحت به:

- ابو حيدر... توقف... ارجوك.

- داليا... ماذا بك؟. ماذا حدث...؟

ولكن داليا لم تجب فرهاد... إذ قذفت نفسها خارج السيارة اول ما توقفت، دافنة وجهها... في غطاء رأسها...

- ماذا بها ماما...؟

- تتقيأ... داخت...

وخطف فرهاد «الترمس» وهرع خلفها... اخذت منه الترمس واشارت اليه:

- ارجع... ارجع الى الطفل...

ولكنه وقف خارج السيارة... وسمع السائق يقول:

- لم ار ناساً قادرين على تعذيب انفسهم الى هذا الحد.

قال فرهاد ينفي تصورات السائق:

- داخت... داخت من الشمس... ذلك كل مافي الامر...

هزَّ ابو حيدر رأسه واكتفى بالنظر الى... الشمس... التي لم تعد شمساً وانما استحالت الى مجرد... قرص احمر... يوشك ان يغرق... غسلت داليا فاها... ووجهها... ثم استقلت في مكانها بأعياء شديد.

- كيف... انت الآن...؟

- بخير... بخير...

- تمددي... تمددي... لعلك تنامين... نتحول انا وناسو الى الامام.

استلقت داليا... في المقعد الخلفي... واضعة حقيبتها اليدوية تحت رأسها... كان طعم القئ ما يزال يثير فيها التقزز... وقد... انشق في

رأسها صداع شديد...

مال عليها فرهاد:

- مرتاحة...؟

- احسن...

تناولت قطعة طماطة من لفة «الكباب»... ساعدها طعمها على التغلب على طعم القيء... اغمضت عينها... بينما ظل فكاها يتحركان بوهن... يعلسان قطعة الطماطة.

- نم... ابني... نم...

أمر فرهاد ابنه... إذ احس به يتحرك... ويهم ان ينهض... ولكن الطفل لم يرضخ، فأحتد فرهاد اكثر:

- نم... نم... اما كفاك ما فعلته بأمك؟

- تستاهل...

رد عليه الطفل بحدة اكثر:

- ئاسۆ...

- هي السبب... هي السبب...

- ئاسۆ...

وفي هياج... رفع كفه يهم ان يصفع الطفل... ولكن الطفل القى بنفسه في حضن ابو حيدر، منكمشاً على نفسه امسك... ابو حيدر بيد فرهاد...

- دعه... بالله عليك ابو ئاسۆ... دعه... انه طفل. لا يعي ما يقول.

بينما قالت داليا بصوت واهن تؤكد ما قاله ئاسۆ... بأحساس طاغ بالذنب؟

- صحيح... يا فرهاد... ما يقوله الطفل صحيح...

- داليا... ما الذي تقولين...؟

- انا السبب... فرهاد... انا السبب، ولست ادري كيف اتخلص من هذا الشعور؟

وانشق في قلب فرهاد جرح اعمق وادمى من كل الجروح، أي حقد سينطوي عليه الطفل ازاء امه بعد اليوم.. خاصة إذا عادوا ووجدوا الطائر قد مات... وهو ميت لا محالة... لا محالة...

ولكنه مع هذا قال... محاولاً تخفيف وطأة الاحساس بالذنب، الذي لم يعرف حتى الآن سببه، عنها.

- لم ترتكبي... جريمة... يا داليا...

- بل ارتكبت... يا فرهاد... ارتكبت.

- داليا... ارجوك لاتنسى الظروف التي احاطت بنا...

- الظروف تتحمل قسطاً صغيراً... ان استسلامنا لها على ذلك النحو يتحمل القسط الاكبر...

- لم يكن... بوسعنا ان نتصرف على نحو آخر.

- فرهاد... يا حبيبي... انت لا تدري... لا تدري...

- ماذا هناك يا داليا...؟

فقالت بصوت متشنج:

- لقد سكبت... ماء الطائر... سكبت ماء ئاسوّس...

- سكبت الماء؟...

- تعلق القفص بذيل ثوبي... و...

وقاطعها: إذن لم تتعمدي... يا داليا... لم تتعمدي.

- تعمدت ام لم اتعمد... النتيجة واحدة يا فرهاد... واحدة... بقي ئاسوّس بلا ماء... ولا اكل... ولا...

- فات الاوان... يا داليا... اي فائدة من الاستمرار في تعذيب انفسنا

والآن نامي... نامي... يا حبيبتي... ما تزال امامنا اكثر من ساعة... لعلك تنامين خلالها قليلاً...

«وهل يتركني شبح ناسۆس ان انام... ان ارتاح... بعد الآن؟»

ودت من اعماقها... ان تعود... ولكن ماذا بوسعها؟ لو كان ابوها ذلك الذي يحتضر... لما ترددت لحظة... ولكنه ابوه... هو... هو... وينبغي ان يقرر ذلك بنفسه...

- نام... ناسۆ... نام.

قال ابو حيدر:

- نام؟...

تساءل فرهاد:

- دعني آخذه... انه... يعوقك عن السياقة.

- خذه... برفق... برفق...

ثم اضاف:

- لا... لانه يعرقل سياقتي... فانا بوسعي ان اسوق وهذا الملاك في حضني... ولكني اخاف ان يستيقظ اثناء تحركاتي...

وسحبه فرهاد اليه برفق، لم يعد ثمة الكثير لنصل اربيل... فقط لو يظل نائماً... حتى نصل... هناك يمكن ان نفكر على نحو اسلم.

كان صدره الصغير يعلو ويهبط... تأمله بحزن... ما قاله عن داليا ما يزال ينغزه... فترت شفتا الطفل عن ابتسامة باهتة... تدلت شفته السفلى... فبانت اسنانه الصغيرة المرصوفة بدقة... لا يشوبها... سوى سنتيه الاماميتين... اللتين خرجتا عن النظام العام لاسنانه وبرزتا الى الامام... وإذ... تأمل انفه الدقيق المحدودب قليلاً في منتصفه... تذكر انف ابيه وبلا شعور تحسس انفه...

- هل يريد شيئاً؟

تساءلت داليا... وهي تنهض جالسة:

- ئاسوّ؟... لا... انه نائم...

- خيّل إليّ اني سمعت صوته...

- لعلكِ حلمتِ...

قالت داليا:

- لا... لم انم... أبداً... ولكن خيّل إليّ... المهم...

وقطعت كلامها ومالت بكل جسمها نحو ئاسوّ؟

- امسح عنه العرق... يا فرهاد...

ناولته منشفة صغيرة... لم يكن ثمة عرق في وجه ئاسوّ ولكن لعابه، كان قد اخذ يسيل على الطرف الايمن من فتحة فيه...

بدأ ئاسوّ يحرك... شفتيه... ويخرج صوتاً مخنوقاً...

- ماذا به... ماذا بالطفل...؟

سألت داليا بخوف:

- لاشئ... لعله... يحلم...قال أبو حيدر بألم:

- وهل كف المسكين لحظة عن الحلم...

لماذا لا يدعنا هذا الرجل نصل الى اربيل، لماذا يظل يعبث بجروحنا...؟

- ليحلم... لا ضير... كل انسان يحلم...

انتبه فرهاد الى نبرة الاستياء في صوته... واضحةً.

- آسف... آسف... لكل ما قلت... لقد سمحت لنفسي بالتدخل اكثر مما ينبغي...

اسرعت داليا تعتذر:

- لقد غدوت واحداً منا... يا ابو حيدر...

فاشرق وجه «ابو حيدر»:

- ذلك احساسي يا ابنتي... يشهد اللّه... ذلك احساسي... منذ صعدتم في سيارتي...

نبههم ئاسو... الى نفسه مرة اخرى... بآهة صدرت منه...

اعقبتها حركات من يديه... يضربها في الفضاء... كأنه يضرب أحداً.

- يا إلهي... ماذا به...؟

- لعله... يطرد خطراً يقترب من ئاسوّسه.

قالها ابو حيدر... بلا وعي... ثم انتبه واخذ يعتذر:

- آسف... آسف جداً... يفلت احياناً مني الكلام... دون تعمد...

- نحن نقدر موقفك يا أبو حيدر... انت تتألم من اجل الطفل...

- وايّ ألم... يا ابنتي... ايّ ألم... واللّه بقدر ما تألمت من اجل خوله... وأكثر.

-اطمئن ابو حيدر... سأبذل المستحيل... واجعله ينسى... طائره... كما جعلت خوله... تنسى دميتها الاولى...

- خوله؟...

وتساءل ابو حيدر... بدهشة... كأنه يسمع بالاسم للمرّة الاولى:

- خوله... لم تنس لعابتها يا استاذ...

- ولكنك قلت...

لم يبال به ابو حيدر:

- اشتريت لها... واللّه اكثر من عشرين دمية... ولكنها رفضتها كلها... هذه عينها صغيرة... تلك وجهها اصفر... اخرى شعرها اشعث... لم ترض عن دميتها الأولى بديلاً... قط... قط

واعاد فرهاد كلامه:

- ولكنك... قلت...

فقاطعه ابو حيدر بحدة:

- ولكني قلت نسيتها... لا... لم أقل. انت ارغمتني على ذلك القول.. فرددت لك الجواب الذي كنت تريده...

تراجع فرهاد:

- آسف... آسف...

لم يسمعه ابو حيدر كان مندمجاً في حديثه عن حفيدته...

- ظلت تحوم حول لعابتها... الأولى... التي رميتها في ساعة من ساعات غضبي الاعمى... بعد ان حطمتها... في بالوعة في باحة الدار... حتى... حتى... القت بنفسها... خلفها...

- ألقت بنفسها ؟...

- هي الآن... مبتورة الساقين... وفي الثانية عشرة من عمرها وما زلت... اشتري لها... الدمى...

لم يجد احد من الوالدين... لديه... ما يقوله... فقط... التقت نظراتهما على ئاسۆ... الذي كان ما يزال يحرك... شفتيه... ويديه... يضرب بهما الهواء... وهو يبتسم تارة... يتجهم اخرى...

- لا... الثلاجة... لا... ئاسۆس... لا...

وارتعب الكل...

- ئاسۆ... ئاسۆ...

- آه... مات... الثلاجة... ضربته...

- ئاسۆ... ئاسۆ...

وكادت المرأة تجن... توقف ابو حيدر عن السير... بينما راح فرهاد يخضه... ينقذه من الكابوس الجاثم فوق صدره...

ولم يكد الطفل يفتح عينه... حتى صرخ باكياً:

- ئاسۆس... بابا... ئاسۆس... مات... مات...

- ئاسوّ... ابني...

- ئاسوّ... روحي...

- ولدي ئاسوّ...

- ئاسوّس مات...

- لا... ابني... لا... لم يمت ئاسوّس... كنت تحلم...

- ها...؟

واجال الطفل نظره هنيهة... ورفض ان يصدق ان ما رآه... كان مجرد حلم...

- لا... لا... ضرب الثلاجة بقوة... وسقط تحتها ميتاً...

وتفجرت عينا الام بالدموع.

- بابا... نرجع... بابا فدوة نرجع...

قال فرهاد بسرعة وبدون تردد:

- ابو حيدر... ارجع بنا الى الحلة.

وتهلل وجه ابو حيدر... واستدار بسرعة...

- الآن... ابني... الآن...

طوق... ئاسوّ عنق ابيه... يغمر وجهه بالقبل...

والتقت ثلاث اكف... فوق رأس الطفل تربت عليه بحنان وبدا لفرهاد انه يلمح في وجه الطفل المبتسم وجه ابيه، يبتسم له... ويكشف عن سنتيه البارزتين...

وحين مالت عليه داليا تقلبه سبقتها الى وجه الطفل النجمة المضلعة المتدلية من رقبتها... فلثمتها معه... بسعادة.

بعقوبة: أيار ١٩٧٥

للكاتب

اولاً: المسرحيات، «المنشورة والمعروضة»

١- الاحتفال: نشرت في مجلة «صوت الطلبة»، بغداد، ١٩٥٩

٢- الحرباء: قدمتها فرقة «مسرح بعقوبة»، بعقوبة، ١٩٦٩، اخرجها الفنان جبلة عبد الحميد وقدمتها فرقة «مسرح الصداقة»، بغداد، ١٩٦٩، أخرجها الفنان اديب القليجي.

٣- الاشارة: نشرت في جريدة «التآخي»، بغداد، ١٩٦٥، قدمتها فرقة «مسرح المجددين»، بعقوبة، ١٩٦٨. اخرجها الفنان سالم الزيدي.

٤- السرّ: مطعبة «الغري»، النجف، ١٩٦٨، قدمتها فرقة «نقابة المعلمين»، قاعة الخلد، بغداد، ١٩٦٨. قدمت في معظم انحاء العراق. ترجمها الى اللغة الكردية الفنان نوزاد قادر. قدمتها فرقة «نقابة عمال البناء»، السليمانية، ١٩٧٥. اخرجها الفنان جليل زەنگەنه.

٥- الجراد: من مطبوعات مطبعة «دار الساعة»، بغداد، ١٩٧٠. نالت جائزة «الكتاب العراقي»، المربد، ١٩٧٠

٦- السؤال: او «حكاية الطبيب صفوان بن لبيب وماجرى له من العجيب والغريب»، قدمتها فرقة «مسرح اليوم»، بغداد، ١٩٧٥، اخرجها الفنان الراحل الكبير الاستاذ جعفر علي. نالت جائزة «احسن نص مسرحي» ١٩٧٥، ١٩٧٦. طبعتها وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٧٦. عرضت في انحاء عديدة من العراق. ترجمت الى اللغة الكردية، قدمتها فرقة «جمعية الفنون الكردية»، اربيل، ١٩٧٧، اخرجها الفنان پيمان بي گود، قدمتها فرقة «مسرح الطليعة، الكويتي»، الكويت، ١٩٨٠. اخرجها الفنان التونسي المنصف السويسي، شاركت بها الفرقة في مهرجان، قدمها مسرح «سيد درويش»، الاسكندرية، مصر، حزيران، ١٩٨٦، اخرجها الفنان المصري محمد غنيم، قدمتها «جامعة الزقازيق»، جمهورية مصر العربية، اذار، ١٩٨٦، اخرجها الفنان المصري صلاح مرعي، قدمتها فرقة «مسرح البحر»، الجزائر، ١٩٨٧، قدمتها فرقة «مسرح

الجامعيين»، البحرين، ١٩٨٨. قدمت في انحاء اخرى من العالم العربي

٧- الاجازة: قدمتها فرقتا «مسرح بعقوبة، ومسرح ديالى»، بعقوبة، ١٩٧٧. اخرجها الفنان سالم الزيدي. ترجمها الى اللغة الكردية الشاعر الكبير شيركوبى كهس. قدمتها فرقة «مسرح الطليعة»، السليمانية، ١٩٧٨. اخرجها الفنان احمد سالار. ترجمها الى اللغة الكردية مرة اخرى، الفنان «چەتو حسن». قدمتها «الفرقة القومية للتمثيل»، اربيل، ١٩٨٩ اخرجها الفنان تحسين شعبان. قدمتها الفرقة ثانية، في مهرجان «المسرح العربي»، بغداد، ١٩٨٩

٨- في الخمس الخامس من القرن العشرين يحدث هذا!! :نشرت في مجلة «الاقلام»، بغداد، اذار، ١٩٧٩. قدمتها فرقة «مسرح اليوم»، بغداد، ١٩٧٩. اخرجها الفنان عادل كوركيس. اعادت الفرقة عرضها في بعقوبة، ١٩٧٩. نالت جائزة «النص العراقي» ١٩٧٩ - ١٩٨٠. ترجمت الى اللغة الكردية. قدمتها فرقة «الفنون الجميلة»، اربيل، ١٩٨٠. أعادت عرضها في بغداد، ١٩٨٠. قدمت في المغرب، ١٩٨٧. قدمت في السودان، الخرطوم، ١٩٩٨. قدمتها لجنة «المسرح العراقي» - ١٩٩٨. اعادت عرضها على مسرح الرشيد بغداد. اخرجها الفنان سالم الزيدي.

٩- اليمامة: صدرت عن «اتحاد الكتاب العرب»، دمشق، ١٩٨٠.

١٠- مساء السلامة ايها الزنوج البيض: نشرت في مجلة «الثقافة»، بغداد، تشرين، ١٩٨١. قدمت في المغرب، الدار البيضاء، ١٩٩١. قدمتها لجنة «المسرح العراقي»، فرقة «مسرح ديالى»، ١٩٩٩. قدمتها لجنة «المسرح العراقي»، منتدى المسرح، بغداد، ١٩٩٩. اخرجها الفنان سالم الزيدي. ترجمها الى اللغة الكردية الفنان ازاد برزنجي. قدمت في معهد «الفنون الجميلة»، السليمانية، ١٩٨٨. اخرجها الفنان ازاد برزنجي.

١١- العلبة الحجرية: قدمتها فرقة «مسرح اليوم»، ١٩٨٢. اخرجها الفنان يوسف رشيد. نالت جائزة افضل نص، ١٩٨٢-١٩٨٣. نشرت في مجلة «الاقلام»، بغداد، آذار، ١٩٨٣. قدمتها الفرقة «القومية للتمثيل»، بغداد، ١٩٨٨. شاركت في مهرجان «المسرح العربي»، ١٩٨٨. اخرجها الفنان فتحي زين العابدين. قدمت في المغرب، الرباط، ١٩٩٨. اخرجها الفنان المغربي عبدالكبير

الركاكنة. قدمتها الفرقة القومية مرة اخرى، في مهرجان المسرح العراقي الخامس - بغداد، نيسان، ٢٠٠١. اعادت عرضها في «مهرجان عمان للمسرح العربي» تشرين الاول ٢٠٠١. حصدت ثلاث جوائز من مجموع جوائز المهرجان الست. اخرجها الفنان فتحي زين العابدين.

١٢- لمن الزهور؟: نشرت في مجلة كاروان، اربيل، حزيران، ١٩٨٣. قدمت في مهرجان «بغداد الاول للمسرح العربي»، بغداد، ١٩٨٥. اخرجها الفنان عزيز خيون. ترجمها الى اللغة الكردية الكاتب ازاد برزنجي. نشرتها مجلة «بيان»، بغداد، اذار، ١٩٨٨. قدمها معهد «الفنون الجميلة»، السليمانية، ١٩٨٩. قدمها منتدى المسرح، بغداد، ١٩٨٩.

١٣- صراخ الصمت الاخرس: قدمتها فرقتا المسرح الشعبي ومسرح اليوم، بغداد، ١٩٨٧. اخرجها الفنان الدكتور عوني كرومي. اعيد عرضها على قاعة الفنانين التشكيليين، بغداد، ١٩٨٨. قدمت في عمان، الاردن، ١٩٩١. اخرجها الفنان عوني كرومي. نشرت في مجلة «فنون» الاردنية، العدد (١١-١٢)، ١٩٩٢. ترجمها الى اللغة الكردية الفنان كريم بياني. نشرت في مجلة «سينما ومسرح»، اربيل، آذار، ١٩٩٩. قدمتها فرقة «رڤند»، برلين- المانيا، ١٩٩٩. اخرجها الفنان عوني كرومي.

١٤- حكاية صديقين: نشرت في مجلة «الاقلام»، بغداد، كانون الثاني، ١٩٨٦. قدمتها فرقة «المسرح الفني الحديث» شباط، ١٩٨٨. شاركت في مهرجان «المسرح العربي»، ١٩٨٨. اخرجها الفنان سامي عبدالحميد. قدمت في البحرين، المنامة، ١٩٩٠.

١٥- الحارس: نشرت في جريدة العراق، تشرين الاول، ١٩٨٧. قدمتها فرقة «نقابة الفنانين» ميسان، شباط، ١٩٨٨. اخرجها الفنان مكي حداد. شاركت في مهرجان «المسرح العربي»، ١٩٨٨. نشرتها مجلة «البيان»، الكويت، ١٩٨٩. ترجمها الى اللغة الكردية إسماعيل نور. نشرت في «روڤار» العدد ٦، ٢٠٠٠. عرضت في أربيل.

١٦- الأشواك: نشرت في مجلة «الأقلام» بغداد، شباط، ١٩٨٨. قدمتها الفرقة القومية للتمثيل، بغداد، آذار، ١٩٨٩. شاركت في مهرجان «المسرح العربي»،

١٩٨٩. أخرجتها الفنانة منتهى محمد رحيم. نالت جائزة النص العراقي ١٩٨٩-١٩٩٠.

١٧- تكلّم يا حجر: نشرت في مجلة «الأقلام» بغداد، آذار، ١٩٨٩. قدمتها الفرقة القومية للتمثيل، آذار، ١٩٨٩. أخرجها الفنان وجدي العاني. شاركت في مهرجان «المسرح العربي»، ١٩٨٩. ترجمها الى اللغة الكردية الكاتب محمد عبدالرحمن زەنگەنە. قدمت في أربيل، ١٩٩٩. أخرجها الفنان طلعت سامان.

١٨- كاوه دلدار: مطبعة وأوفسيت حسام، بغداد، ١٩٨٩.

١٩- العقاب: نشرت في مجلة «الأقلام»، شباط، ١٩٩٠. ترجمها الى اللغة الكردية الشاعر جمال غەمبار. نشرت في «روڤار» العدد ٦، السليمانية، ٢٠٠٠.

٢٠- القطط: نشرت في مجلة «الأديب المعاصر»، ميسان، ١٩٩٢. قدمتها فرقة «مسرح ١٤ تموز»، ١٩٩٥. أخرجها الفنان حسين جوير.

٢١- موت فنان: نشرت في مجلة «الأقلام»، آذار، ١٩٩٤.

٢٢- هل تخضر الجذوع؟: نشرت في جريدة «العراق»، تموز، ١٩٨٧.

٢٣- مسرحيات: صدرت عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤. ثلاث مسرحيات في كتاب نالت جائزة أحسن كتاب، ١٩٩٤.

٢٤- مساء السلامة أيها الزنوج البيض: صدرت عن الأمانة العامة للثقافة والشباب، ١٩٨٨. ثلاث مسرحيات في كتاب

٢٥- أردية الموت: نشرت في مجلة «عشتار» غزة، فلسطين، عدد ٨، ١٩٩٦.

٢٦- سيأتي أحدهم: نشرت في مجلة «الرواد» العدد الأول، ٢٠٠٠.

٢٧- المائدة المستطيلة: نشرت في جريدة «الزمن» نيسان، ٢٠٠٠.

٢٨- رؤيا الملك: من إصدارات وزارة الثقافة، ١٩٩٩. قررت كلية التربية، جامعة ديالى إعتمادها مادة علمية في موضوع تحليل النصوص الأدبية نظراً لأهميتها الأدبية والفنية. حسبما جاء في قرار مجلس الكلية. نالت جائزة الإبداع في الأدب المسرحي، ١٩٩٩.

٢٩- مسرحيتان. صدرت عن دار الحرية، بغداد، ٢٠٠١.

٣٠- العانس: نشرت في مجلة «ألق» عدد ٣، حزيران ٢٠٠١.

٣١- مع الفجر جا... مع الفجر راح. نشرتها مجلة المشهد، العدد ٨ في ٢٠٠٢.

٣٢- شعر بلون الفجر، نشرتها مجلة "الق" العدد ٢، ربيع ٢٠٠.

٣٣- الجنزير، نشرتها مجلة "پەيڤين" العدد ٧ باسم مستعار هو ئاسۆس ميدي، عام ٢٠٠١.

٣٤- السفينه، نشرتها مجلة "پەيڤين"، باسم مستعار هو "ئاسۆس" العدد ٨ سنه ٢٠٠١، باسم مستعار هو "ئاسۆس".

٣٥- زلزلة نرى في عروق الصحراء، نشرتها "پەيڤين"، العدد ١١ الحادي عشر عام ٢٠٠٤. نشرتها جريدة "الزمان" الدولية، عام ٢٠٠٥، في اربع عشرة حلقه.

٣٦- عشرة نصوص مسرحية. صدرت في كتاب عن دار الشئون الثقافية، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠٤.

٣٦- الخاتم: نشرتها مجلة "پەيڤين" العدد السابع، عام ٢٠٠٢، نشرتها جريدة "الزمان" الدولية في سبع عشرة حلقة، عام ٢٠٠٣، ظهرت في كتاب.

الطبعة الاولى: دانمارك، كوبنهاگن، دار قوس قزح، عام ٢٠٠٤.

الطبعة الثانية: وزارة الثقافة، كوردستان، السليمانية، عام ٢٠٠٤.

ثانياً: الروايات:

١- هم أو «يبقى الحب علامة» إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٥.

٢- ئاسۆس: دار الساعة، بغداد، ١٩٧٧.

٣- بحثاً عن مدينة أخرى: إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٠.

٤- الموت... سداسياً: مجلة «الأقلام»، بغداد، ١٩٧٠.

ثالثاً: القصص

١- كتابات تطمح ان تكون قصصاً، من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤. ترجمها الى اللغة الكردية القاص غفور صالح. صدرت في

كتاب عن دار الثقافة والنشر باللغة الكردية، بغداد، ١٩٨٦.

٢- الجبل والسهل: من منشورات دار ئاراس للطباعة والنشر - ٢٠٠٢.

- العديد من القصص والمقالات والدراسات النقدية والفكرية حول قضايا الأدبين العربي والكردي، التي نشرت في الصحف والمجلات المحلية والعربية والتي لم تجمع حتى الآن في كتاب.

- مسرحيات وروايات وقصص مازالت غير منشورة (مخطوطة).